الفصل الثالث
مواضيع سوسيولوجية

الموضوع الأول: التغيير الاجتماعي

الموضوع الثاني: المجمل الاعتقادي

الموضوع الثالث: الهجرة والنزوح

الموضوع الرابع: الحداثة والهوية

الموضوع الأول:
التغيير الاجتماعي

باستعراض تاريخ المجتمع البشري الطويل يظهر مدى الاختلاف الهائل بين ما كان عليه وبين ما هو الآن، في مسيرة هذا المجتمع عبر التاريخ كان هناك تحوّل جذري ظهر في محطات فاصلة، صنّفها الباحث (لويس مورغن) في نظريته عن التقدم الإنساني في ثلاث: 1) **المرحلة البدائية**: بدأت منذ وجود الإنسان على الأرض حتى مرحلة تحصيل قوته في صيد السمك، 2) **المرحلة البربرية**: وهي التي تبدأ من مرحلة ابتكار الفخار إلى فترة استئناس الحيوان وزراعة النبات والأشجار، 3) **المرحلة المدنية**: وتبدأ منذ اختراع الحروف الأبجدية واستخدام الكتابة وحتى وقتنا الحاضر. ولكن:

- **كيف يمكن أن يعرّف التغيير؟.**
- **كيف يحدث التغيير ومتى يحدث؟.**
- **ما الذي يتغير: الإنسان/ الطبيعة / المجتمع أم ماذا؟.**
- **هل يمكن أن يحدث التغيير دونما توقع أم أن هناك ترتيبات تحصل؟.**
- **لماذا يرفض بعض الناس التغيير الاجتماعي؟.**
- **ما الآثار التي يمكن أن تتأتى من جراء التغيير؟.**

بعض النظريات ربطت التغيير بالتطور الذي يحدث تلقائيًا في الطبيعة والحياة والمجتمع (باعتبار أن التغير سُنّة الحياة)، نظريات أخرى رأت أنه يحدث نتيجة اختراع تكنولوجي يغير من مسار الحياة والمجتمعات، وفي كلا الأمرين يظهر التغيير على أنه الواقع المتحول دومًا في شتى المجالات الإنسانية من الاجتماع إلى الاقتصاد إلى الثقافة إلى الطب إلى مختلف شؤون الحياة، إنه «حال الاختلاف» بين زمنين: ما قبل وما بعد، ويمكن أن يلاحظ

ذلك بسهولة من خلال رصد بعض المؤشرات الحاصلة في زمنين منفصلين، كمثال المعطيات الديموغرافية التالية عن أمريكا ولبنان(*):

	المؤشرات الأمريكية.	1960	2005
في التعداد السكاني	من هم دون ال15 سنة.	%31	%20
في التربية	من أنهوا الدراسة الثانوية	%13	%15
	من دخلوا الجامعة وتخرجوا	%40	%46
في العمل	نسبة الرجال	%86	%86
	نسبة النساء	%74	%72
في الصحة	عدد الأطباء بين كل 100000 نسمة	150 طبيب	265 طبيب
	معدل الحياة المتوقع	70 سنة	78 سنة
في العائلة	متوسط عمر الزواج بالنسبة للذكور	23 سنة	24 سنة
	متوسط عمر الزواج بالنسبة للإناث	20 سنة	22 سنة
	عدد الولادات في العائلة	4 اولاد	ولدين

	المؤشرات اللبنانية.	1985.	2000.
التعداد السكاني	عدد السكان	2600000	4005000
	من هم دون ال15 سنة.	%36.	%28
في التربية	من أنهوا الدراسة الثانوية	%74	%64
	من دخلوا الجامعة وتخرجوا.	%40	%30
في العمل	نسبة الرجال	%70	%77
	نسبة النساء.	%10.	%21
في الصحة	عدد الأطباء بين كل 100000 نسمة	70 طبيب	237 طبيب
	معدل الحياة المتوقع	67 سنة	70 سنة
في العائلة	متوسط عمر الزواج بالنسبة للذكور	21 سنة	30 سنة
	متوسط عمر الزواج بالنسبة للإناث	19 سنة	24 سنة
	عدد الولادات في العائلة	5.5 أولاد	2.8 أولاد

(*) أستند في معطيات هذا الجدول على:

the world alamanic (book &facts) 1988, mark hoffen, pharos book, scripps howard companies, new York, 1988. والمرأة والرجل في لبنان، صورة إحصائية 2000، الهيئة الوطنية لشؤون المرأة اللبنانية، بيروت، 2000.

ما هو التغيير الملاحظ في الدولتين وخلال الفترتين الزمنيتين؟ هل هناك تقارب أم تباعد بين نسب المجتمعين؟ إلى ما يدل ذلك؟ ما هي الفئات / المؤشرات المتوقعة خلال السنوات العشر التالية بناء على هذه المعطيات هل ستتبدل..؟ اللافت في كلا الجدولين أن هناك تحول في الواقع السكاني نحو ازدياد وتبدل في معطيات العلم والعمل والزواج نحو انخفاض، مما يؤشر ذلك إلى أنه ليس هناك محطات للتغير إنما الموجود فعلًا هو علاقات اجتماعية في تغيّر دائم، تزداد مع قدرة الإنسان في السيطرة على الطبيعة لمصلحته وفق معادلة: «ما هو موجود» إلى ما «يمكن أن يوجد!».

* مسببات التغيير

في مختلف الأوضاع الاجتماعية هناك ظروفًا مهيأة نحو كل تغير، فالطبيعة تتغير وتتبدل وفقًا لعوامل المناخ والدورات الفلكية الممكنة، كذلك يمكن القول عن شؤون الناس في حياتهم اليومية ومحيطهم الاجتماعي كيف أن الأمور ليس هي ما كانت عليه منذ زمن قريب والسبب تحسّن أوضاع الناس ماديًا وعلميًا واجتماعيًا. ومن العوامل التي تذكر كمسببات للتغيير هناك: الحاجة والاستعداد النفسي والقاعدة الاقتصادية والتوسع الثقافي وانتشار الأفكار والمعتقدات عبر الإعلاميّات وحتى الكوارث والحروب يمكن أن تحدث تغيرًا، حيث يرى بعض الباحثين أن الحرب يمكن أن تلعب دورًا كبيرًا في التحول الاجتماعي عملًا (بقول غاستون بوتول) بأن الحرب صورة من صور الانتقال المعجّل، فهي تدفع نحو خروج المرأة إلى ميدان العمل (لسبب انشغال الرجل في الحرب أو لوفاته من جرائها) وساهمت ـ نتيجة تكررها في العالم الغربي خلال القرن العشرين ـ في اختراع حبوب منع الحمل الذي ترتّب عليه سيطرة النساء على أجسادهن وتحكّمهن في الولادات، مما حرر المرأة فعليًا من فكرة تبعيتها للرجل وتقاسمها العالم الاقتصادي معه على شيء من المساواة[1].

(1) محاضرة عن أثر الحروب والنزاعات المسلحة على أوضاع الأسرة العربية (دراسة حالة لبنان) د. منى فياض، الأسكوا، بيروت 2003).

يبدو أن هناك عوامل عديدة تتداخل في أحداث التغيير فلا يمكن إرجاع التبدّل والتحول إلى سبب واحد جوهري. إلا أن بعض الباحثين أمثال (وليم أوجبرن) أولى بعض العوامل أهميةً على حساب بعضها الآخر معتبرًا إياها هي الأساس في كل تغير ويعني بذلك ظهور التكنولوجيا، فدخولها المجتمع البشري هو ما يمكن اعتباره الحد الفاصل بين مجتمع متقدم وآخر متأخر، لأن التكنولوجيا من شأنها أن تُهيّأ للإنسان فرص الوصول إلى أهداف محددة بأقل جهد ممكن وبأقل التكاليف المتوقعة، ومثال على ذلك أن آلة النسيج تقوم بمقام 2000 عامل، كذلك المطبعة تقوم بعمل مليون ناسخ، وفي سنة 1900 كان يلزم ألف وثلاثمائة ساعة لإنتاج سيارة (ثلاثة أشهر) أما اليوم وبعد مائة عام لا يحتاج الأمر لأكثر من 18 ساعة لإنتاج سيارة جديدة. كذلك الحال بالنسبة للطائرة فإنها تقطع ألف كلم بالساعة وهي محملة بمئات الركاب وعشرات الأطنان بينما لا يستطيع الإنسان السير أكثر من ستة كيلومترات حاملًا بضعة كيلوغرامات. مما يعني أن وجود التكنولوجيا كان نقطة تحول في تاريخ الشعوب والمجتمعات والاقتصاد والأعمال، فالوسائل الفنية في الزراعة واستعمال الجرارات الزراعية وطرق تحسين تربية الماشية وتطور وسائل التبريد والتدفئة واستحداث نظم جديدة في العناية الصحية والحماية البيئية من شأنها جميعها أن تؤدي إلى تحسن ليس في زيادة الإنتاج وتحسين نوعيته وإنما إلى تحسن في ظروف الناس وحياتهم اليومية أيضًا. . ذلك أن التغير التقني يستتبع تحول معيشي يدفع إلى استقدام وسائل ترفيه واستخدام وسائل إعلام لم يكن يستخدمها المرء مسبقًا.

إلى جانب الحروب وظهور التكنولوجيا كمسببات في أحداث التغيير، لعبت الهجرة دورًا بارزًا في بعض المجتمعات خاصة تلك التي شهدت هجرات مكثفة من موطنها إلى مواطن أخرى بديلة حتى انعكس في طبيعة الحركة الديموغرافية من تغير على مستوى الولادات والوفيات وتحول المجتمع معها من فتي إلى هرمي، كما هو الواقع في لبنان حيث أشارت بعض الإحصائيات إلى تغير في التوزيع النسبي لسكان لبنان المقيمين، حيث تنخفض نسبة السكان دون الـ 15 عامًا من 30 في المئة في عام 2006 إلى 24 في

المئة في عام 2021، وسترتفع نسبة السكان بعمر 65 وما فوق من 2،7 في المئة في 2006 إلى 8 في المئة في العام 2021. كذلك فإن الهجرة المتزايدة ستقلّص قاعدة الهرم السكاني الشبابية من 19 في المئة عام 1996 إلى 17 في المئة عام 2021. وتبين أن زيادة نسبة العزوبية بين النساء وارتفاع عدد المهاجرين يؤثران في الزيادة الطبيعية للسكان.

*** مظاهر التغيير:**

عندما يطرأ على نمط الأشكال الثقافية نوعًا من التعديل عن المسار المألوف فهذا يعني أنها دخلت طور التغيير ويحدث فعليًا عندما تتبنى جماعة معينة عنصر ابتكاري جديد (سمة ثقافية وافدة) ومع تفاعل هذه الجماعة للعنصر الجديد تبدأ التأثيرات والتغييرات بالظهور في نماذج متنوعة بحسب السياق الذي تنحاه الجماعة، ومن هذه النماذج المتحولة مثلًا:

1 . تحول المجتمعات من الشكل البسيط في العلاقات إلى المعقد.

2 . انتقال الناس من نمط معيشي بدائي إلى آخر أكثر مدنية.

3 . تبدل في الحركة الديموغرافية (انخفاض معدل الولادات / تحسن مدى العمر).

4 . تغير في الدور الاجتماعي للمرأة والشباب.

5 . تغيرات في مجالات التعليم مع استحداث اختصاصات جديدة تواكب العصر.

6 . تغير في مفهوم الأسرة والزواج **(ممتدة نحو النواة نحو الكوبل/ الزواج التقليدي نحو المدني)**.

7 . تغيرات في صور الضبط الاجتماعي (انحسار الضمير وتوسع الهيئات المحاسبة).

8 . تبدل في مرجعية القرار داخل الأسرة.

9 . التحول من الفكر الثوري والانقلابات نحو مظاهر احتجاج وعنف سلمي.

10 . الانتقال من التبعية والاستبداد إلى تعزيز المساواة والديموقراطية واحترام الرأي و حقوق الإنسان.

* **أهداف التغيير:**

يحدث التغيير أو يُرتجى عادةً لتصحيح خللًا ما أو تنظيم وضع قائم تشوبه الكثير من المخاطر والمفاسد وقد يكون حلًا لمشاكل عالقة وطرحًا للحد من استمرار حالة التدهور نحو أوضاع أفضل، هذا عن «لماذا نتغير؟» أما كيف نتغير فيمكن ملاحظة ذلك على أكثر من مستوى:

✓ ما يحدث على **المستوى الفردي**، عن طريق اعتماد طرق تدرب وتنمية قدرات وترشيد سلوك واتجاهات لغاية عمل أفضل ولأداء مهني ووظيفي جيّد.

✓ ما يحدث على **مستوى الجماعة**، عن طريق التبدّل الحاصل في بعض معالمها ونمط حياتها بين ما كان سائدًا من عادات وتقاليد ترى أنه لم يعد بالإمكان الأخذ بها فلا بد من اعتماد أطر عصرية أخرى وحديثة لتتماشى مع ركب الحضارة والزمن.

✓ ما يحدث على **المستوى العام** عندما تقوم الدول والأنظمة بوضع خطط وإستراتيجيات متطورة لضرورة الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

هذه المستويات تبين أهمية التغيير وضرورته ولكن يبقى السؤال الأهم هل يحدث التغيير دونما آثار مؤذية؟ ما هو ثمن التغيير ونتائجه؟

من المتابعة الميدانية لاحظ الباحثون أن هناك أكلافًا باهظة تحدث من جراء التغيير وترافق مع حالاته، ومن هذه التكاليف: **التكاليف البيئية** (كثرة النفايات/ تلوث المياه والهواء/ انحسار الغابات/ظاهرة التصحر) **التكاليف الاقتصادية** (ازدياد الإنتاج/ زيادة الاستهلاك/ منتوجات جديدة) **التكاليف**

الاجتماعية (انهيار القيم/ انعدام الأخلاقيات/ انتشار ظاهرة الانحراف والإجرام.) التكاليف النفسية (زيادة الإرهاق/ الإحباط/ ضغوط الزمن/ . .) التكاليف الصحية (انتشار أمراض خبيثة/ ارتفاع حالات مرضى السيكوسوماتيك/).

في مجمل هذه الأوضاع يدفع الإنسان المعاصر ضريبة دخوله عالم التطور سواء من بيئته أو صحته أو قيمه، ولعل دخول السيارة في حياة الناس أحدثت تغييرًا مزدوجًا، فرغم إتاحتها الكثير من الفرص لجهة سهولة الانتقال واختصار المسافة والمشقة، أسهمت من ناحية أخرى بكوارث عديدة من جراء استخدامها فهي المسؤولة عن عدد كبير من الوفيّات والمعوّقين وتعاسة كثير من الناس لما سببته من آلام فضلًا عن مساهمتها في مشاكل ازدحام وتلوث وإزعاج وضغوط نفسية بدأت تظهر في المدن المزدحمة حتى انعكس ذلك على صحة الناس وطريقة تصرفهم إزاء بعضهم بعضًا[1]. وكذلك يمكن القول عن حوادث سقوط وتحطم الطائرات أو القطارات وسائر المركبات وما تحدثه من إزهاق في الروح البشرية.

في كتابها «الربيع الصامت» والصادر عام 1962 قدّمت العالمة الأمريكية (راشيل كارسون) وصفًا حيًّا للأمراض الخبيثة المترتبة على العوامل الكيميائية الجديدة التي تفسد حياة الريف والحضر، فبرأيها ثمة مبيدات تسمم الأغذية الأساسية اللازمة لبقاء العديد من صور الحياة النباتية والحيوانية وأنها على الأرجح ضارة بالحياة البشرية أيضًا. وتنبّه هذه العالمة للمخاطر التي تحدث لجهة العبث بالبيئة وبالأغذية من جراء استخدام كيمياوية خطيرة، لكن المشكلة أصبحت أكثر جدلًا وخطرًا مع اعتراف علماء البيئة في الربط بين انبعاث

(1) (ظاهرة الشغب والنزاع اليومي والعنف الشوارعي في العاصمة اللبنانية يكون في مجمله بسبب ركون السيارة أو على أفضلية المرور/ في الولايات المتحدة الأمريكية هناك أكثر من 5000 حادث إطلاق نار بسبب الانفعال الناتج عن الازدحام / وفي لبنان ذكرت التقارير الصادرة عن منظمة الشبية للتوعية الاجتماعية (إليازا) أنه بلغ عدد ضحايا حوادث السيارات في العام 2007 ما يربو على 800 قتيل وعدد كبير من المصابين بإصابات متوسطة وحرجة).

الكبريت من المحطات الكبرى لتوليد الطاقة وبين المطر الحمضي الذي يفسد الغابات ويؤدي إلى استنزاف سلالات السمك في الأنهار والبحيرات. .وهناك احتمال بوجود علاقة مماثلة بين عوادم السيارات وبعض عناصر الحياة النباتية إذ تسبب ذبولًا تدريجيًا للكساء النباتي، والشيء اليقيني المتحقق منه هو أن تركّزات الرصاص في الغلاف المحيط بالمناطق القريبة من طرق السيارات الكثيف تشكل خطرًا على الصحة العامة، والشيء الأكثر مدعاة للتشاؤم ما بات يعرف اليوم بالاحتباس الحراري وتبدلات المناخ وتغيّر حرارة الأرض، وكل ذلك نتيجة الاستخدام غير المسبوق للفحم والوقود الزيتي الذي يؤدي إلى زيادة احتفاظ الغلاف الجوي المحيط بالأرض إلى الاحتفاظ بالحرارة التي تصل من الشمس وهذا ما يعرف بالاحترار الأرضي. . وهناك نتائج مقلقة من أن يسهم هذا الاحترار المزمن إلى ذوبان الغطاء الجليدي القطبي وما من شأنه أن يرفع مستوى مياه البحار ويشكل خطرًا على كل الأماكن المأهولة قرب شواطئ البحار.

وإزاء ما تقوم به التكنولوجيا من مآثر سلبية في دورها ومع تنامي استعمالها، ظهرت حركات مناهضة لها، فهي ساهمت في ارتفاع نسبة وزيادة المتعطلين عن العمل، وأبرز ما عرف من تظاهرات احتجاج ضد استخدام التقنية الحديثة ما قام به عمال بريطانيون خلال القرن الثامن عشر من تدمير آلات حديثة استقدمها أرباب العمل إلى مصانعهم فثارت ثائرة هؤلاء وأخذوا يحطّمونها كرد فعل استنكاري، وعرفت هذه الظاهرة حينها ب: luddites، ونظير ذلك ما حدث في فرنسا عندما عمد عمال غاضبون إلى رمي أحذيتهم (sabots) في فجوات الآلات الصناعية كي تتعطل وبرزت إذاك ظاهرة «sabotage». على ضوء هذه الاحتجاجات المستنكرة إزاء الآلة شهدت الصناعة مطلع القرن العشرين 1930 نشوء نظرية أثارت الاهتمام تقدّم بها المهندس الأمريكي (تايلور) وتقضي بعقلنة العمل عبر تنظيم الصلة بين الآلة والعامل، فبرأيه لا يمكن استبدال الآلة بالإنسان إنما يُفترض اختيار عمال ذوي أجسام قوية للعمل أمام الآلة وفي حال رفض العمال أو تمنّعوا عن القيام بما يطلب منهم فعلى أرباب العمل زيادة أجورهم ولو وصلت هذه الزيادة إلى

مئة بالمئة. ورغم أن عقلنة العمل وفق نظرية تايلور أدت إلى نتائج إيجابية على صعيد تنشيط الدورة الاقتصادية وإدخال التنظيم إلى الصناعة وتوحيد شكل السلع، إلا نتائجها السلبية بدت واضحة لجهة اعتماد العمال الأقوياء دون العمال الآخرين الذين سيكونون ضحية البطالة، كما أنها نظرية استغلالية لما تعتمده من إغراءات في الأجور تدفع العمال إلى زيادة الإنتاج على حساب صحتهم وراحتهم وربما وقتهم مع عائلتهم.. لذلك لاقت بعد حين معارضة شديدة من قبل الكونغرس الأمريكي الذي اتخذ العام 1933 بمنع المساعدات عن المصانع التي تطبق التايلورية.

عبر آلاف السنين كان هناك نفر كرسوا أنفسهم للتقنية، فاستخدموا النار والعجلة والمعادن والتروس والمحركات والموجات الخفية والذرة ورقائق الحاسوب من أجل ما رأوا بأنه يفيد ويتقدم بالحالة المادية للبشرية، وكان العلماء والتقنيون مساهمين رئيسيين في صنع مجتمعات عظيمة واقتصادات مزدهرة، ويعتقد كثير من الناس أنهم يدينون بكل شيء لهم وأنهم سيحلون كل المشكلات التي يمكن أن تطرأ في المستقبل، هذا الموقف يمكن وصفه بأنه تفاؤل مفرط، في المقابل ومع السنوات الأولى للثورة الصناعية كان هناك عصابات عمال وفلاحين تجوب المناطق بنيّة تحطيم الآلات الجديدة في المزارع حيث كانوا يخشون أن تتسبب في فقدانهم لوظائفهم، كما كانوا يخشون أن تحل التقنية محل أسلوب حياتهم أو تنهيه ويمكن وصف موقفهم بأنه كان حالة من الخوف التقني المفرط، وهكذا أصبح هناك التقنيون والخائفون منها، كل يقدّم مبرراته في ما يمكن أن تقوم به التقنية لجهة التفاؤل أو التشاؤم على نحو ما نبينه بالآراء المتعارضة التالية:

التقنيون / جماعة التفاؤل.	الرافضون للتقنية / جماعة التشاؤم.
التقنية سوف توحد العالم، تتغلب على التمييز، تنشر التعليم الشامل، تلبي كل الاحتياجات وتحل كل مشكلة.	التقنية سوف تُفقد كل شخص وظيفته، وسوف تسيطر عليه ويصبح عبدًا لها، سوف ينحط قدر القيم الأخلاقية، وأن العلاقات الإنسانية والإيمان سوف تقيدهما الإلكترونيات المعولمة.
تسمح تقنية الاتصالات السلكية واللاسلكية بالعمل من أي مكان وفي أي وقت.	سوف يقع الناس الأبرياء أسرى المراقبة الإلكترونية والأنشطة الإجرامية والهيئات المالية الخارجية من خلال القرصنة وسرقة الهوية.
سيجعل الإنترنت الحياة أسهل وأفضل لكل شخص وسيوجد سكانا أفضل معرفة وأكثر مشاركة عبر شيوع الدوت كوم.	إن الواقع الافتراضي والرقائق المزروعة سوف يزيحان الإنسانية ويخربان المعرفة الحصيفة، وسوف يقوض الإنترنت حماية حقوق النشر بقدر كبير.
سوف يكون لدى الرجل الآلي (rabo-sapiens) وهو نوع هجين من الإنسان والروبوت) ذكاء متفوق على ذكاء البشر بقدر هائل.	سوف تغير الشخصيات السيبرانية (syberpersonalities) العلاقات الإنسانية بقدر يفوق طاقتنا في السيطرة عليها حينما تتمادى.
سوف تنتج الهندسة الجينية ما يكفي من الغذاء لإطعام العالم وتوصيل الأدوية الرخيصة إلى فقراء العالم بالإضافة إلى علاج معظم الأمراض المستعصية أو الممكنة.	سوف تغير الهندسة الوراثية المحاصيل الزراعية والنباتات مما قد تدمر النظام الطبيعي وحتى أجسامنا لجهة التلاعب الجيني الذي من شأنه أن يخلق نتائج وأمراض غير متوقعة.

* مراحل التغيير:

على الرغم من أن حركات الاحتجاج نحو الآلة كانت قصيرة الأمد ويظهر عليها الاندفاع والارتجال من جماعة غاضبة ضد دخولها إلى عالمهم، وبالرغم من أنه لم يُكتب لهذه الحركات الرافضة النجاح، إلا أنها كانت كافية - وبحد أدنى - لتعبر بدلالاتها ورمزيتها عن حالة القهر والانزعاج الذي يطال العمال من جراء دخول التقنية وما تسهم به من تداعيات على حياتهم ومورد رزقهم وحال معاشهم، ظل حال استقبال التقنيات الحديثة على شيء من الوجوم لدى شرائح كثيرة في المجتمع، وبقي مرهونًا - من جهة ثانية - بمدى التقبل والاستعداد الذهني والمادي والاجتماعي عند الناس، إذ تبين أن السمة

الثقافية والتقنية التي تتناقل عبر المجتمعات والأفراد والمؤسسات تتصارع حولها الآراء بالقبول أو بالرفض ومع حالات القبول المبدئي أو الرفض الكلي لنماذج ثقافية وافدة تبرز إلى واجهة الاعتراضات صراع الثقافات بين ما يعرف بالثقافة المادية (التقنيات) والثقافة اللامادية (القيم الإنسانية) حيث يحدث ما يسمّيه (وليم أوجبرن) بـ «culture lag» أي الفجوة المعرفية القائمة بين التزام الناس لما في ثقافتهم الأصيلة ومدى تقبّلهم لشيء دخيل عليها، والمثال عليه ما بات يعرف اليوم بالتلقيح الاصطناعي/ طفل الأنبوب/ وسائل منع الحمل وتحديد النسل، التي لازالت تلقى معارضة شديدة من قبل الأعراف الاجتماعية التقليدية وأوساط دينية بالرغم من انتشارها، فالكاثوليكية (الرومانية) مثلًا تشدد على أهمية بناء الأسرة الكبيرة واحترام الإنجاب والولادة، كما ترفض رفضًا قاطعًا مسألة وسائل منع الحمل، كذلك في بعض المذاهب الإسلامية حيث الرفض المطلق للتبني وعدم جواز تحديد النسل والدعوة إلى الإكثار منه لاعتبارات عقائدية. هذا يعني وجود فجوة بين إطارين ثقافيين هما: الثقافة المادية (التكنولوجيا) والثقافة اللامادية (الاعتقادات الدينية) مما ترتّب عليه صراعًا قيميًا واضطرابًا فكريًا وبلبلة اجتماعية أفرز الناس بين متقبل ومتردد ورافض وفق خيارات متعددة:

1) قبول السمة دون أخذ ورد.

2) رفض السمة على الرغم من الأخذ والرد.

3) قبول البعض لسمات ورفض آخرين لها.

4) تعديل السمة من قبل بعضهم وعدم استحسانها من بعضهم الآخر.

5) تجاهل ولامبالاة للسمة.

وهذا ما يوضحه عالم الاجتماع الأمريكي (إيفرت روجرز) الذي أشار في كتابه نشر المبتكرات (1983) كيف أن نشر الأفكار الجديدة (تقدم تكنولوجي/ بدعة/ حركة اجتماعية/ إنتاج جديد) هو من أشكال التغيير الاجتماعي الذي يحدث بدوره عبر مراحل حددها بخمس:

1) مرحلة المعرفة (knowledge stage) وفيها يتعرف الفرد أو الجماعة على المبتكر ويتوفر لديهم بعض الفهم عن كيفية عمل المبتكر.

2) مرحلة الاستمالة والاقناع (persuasion stage) وفيها يكوّن الفرد أو المتبنّون اتجاهًا مميزًا نحو المبتكر.

3) مرحلة اتخاذ القرار (decision stage) وفيها يقوم الفرد باتخاذ قرار إما بتبني المبتكر أو رفضه.

4) مرحلة الممارسة والتنفيذ (implementation stage) وفي هذه المرحلة يقوم الفرد بوضع القرار المتعلق بتبني المبتكر موضع التنفيذ.

5) مرحلة التعزيز (confirmation stage) وفيها يتم تدعيم قرار التبني.

الموضوع الثاني:
المجمل الاعتقادي

إن سألت أتباع ديانة معينة ماذا يعني اعتقادكم بما تعتنقون؟ لسمعت منهم: أنه الإيمان بقوة علوية سامية تأمر الناس بقيم أخلاقية وتبشّرهم أو تنذرهم بحياة أخرى. وإن سألت من لا يتبع دينًا ولا يلتزم معتقدًا عن سر إعراضه، لأجاب بأن: الدين هو من صنيعة البشر ابتُكر لتفسير ما هو مجهول عنهم من ظواهر طبيعية أو اجتماعية وفق ما يراه مؤسس هذا الدين مناسبًا أو ذاك.. مثل هذه الآراء تعكس وجهتي نظر نحو فهم المجمل الاعتقادي كظاهرة اجتماعية حيث يعتبره بعضهم مجموعة من التعاليم التي تستدعي الاحترام وتوحي بالرهبة ويفترض القيام بها مجموعة من الطقوس والشعائر الاحتفالية كإقرار في الانتماء والالتزام، ووجهة نظر أخرى ـ وهو رأي بعض الملحدين ـ هناك نفي للفكرة النمطية عما هو موجود في الكتب الدينية وأن ما هو موجود منها يستدعي الاحترام وليس التقديس والعبادة، ويذهب اعتقادهم نحو تفسير الخلق والوجود والطبيعة وإنكار الماورائيات عبر تقديم استنتاجات علمية لا لاهوتية. إزاء وجهتي النظر هذه:

- ☆ **لماذا الاعتقادات ظاهرة مجتمعية منتشرة منذ أقدم العصور؟.**
- ☆ **لماذا تستحوذ هذه الظاهرة أعلى مستويات إيمان والتزام؟ لدرجة التضحية بالنفس باسمها ومن أجلها؟.**
- ☆ **هل الدين وما شابهه ظاهرة مخصوصة بمجتمع دون آخر؟.**
- ☆ **ما الذي يعزز استمرارية هذه الظاهرة وما الذي يحول انتشارها؟.**
- ☆ **بما تلتقي الجماعات الدينية المتنوعة وبما تتمايز؟.**

☆ **كيف يمكن أن نفهم المجمل الاعتقادي اجتماعيًا**: بالتأمل / بالشرائع/ بالتعاليم أم بالعادات والتقاليد أم بالممارسة بشيء آخر؟.

تأتي الإجابة على هذه الأسئلة مدخلًا أساسيًّا لفهم هذا المجمل الاعتقادي والاهتمام السوسيولوجي به لا يرتكز بالطبع على النصوص المجردة أو التعاليم المتداولة لدى دين ما مثلًا، بقدر ما يتطرق إلى السلوك اليومي المتأثر به، سيتم تناوله كحالة فعل ممارس سيّما وأنها ابتدأت كما يقول بعض مؤرخي الأديان منذ بداية حياة الإنسان على الأرض، فقد أشار المؤرخ الإغريقي (بلو ناراك) منذ ألفي سنة (ق.م) إلى أنه: «قد نجد مدنًا بلا أسوار، أو بدون ملوك وحضارة أو مسرح ولكن لم نَرَ مدينة بدون أماكن عبادة» هذا يؤشر إلى أنه منذ القدم لا يخلو مجتمع إنساني من أية ظاهرة دينية، قد يكون ذلك من محض تصوراتها ومعتقداتها الوثنية أو قد يكون نتيجة اتباعها لأنبياء ورُسل في فترات زمنية متعاقبة كما حدث مع اليهودية والمسيحية والإسلام التي تعتبر جميعها من أبرز الديانات التي آمنت بإله واحد ونبي مرسل، على خلاف الجماعات البشرية الأخرى التي آمنت بظواهر طبيعية خارقة أو بحيوانات معينة. من هنا ليس من السهولة بمكان دراسة البعد الاعتقادي عند جماعة معينة، وذلك لاختلاف ظواهره باختلافات الثقافات ولاختلاف الشعائر والطقوس التي تمارس ولكن ما يتفق عليه جميع الدارسين اعتباره «شيئًا مقدسًا» فما هو هذا الشيء المقدس دينًا كان أو خرافةً؟.

أولًا: تعريف الدين:

أفضى التنوع الهائل في فهم هذه الظاهرة وممارستها في كافة المجتمعات إلى تنوع هائل في الآراء عند الباحثين مما حال معه وضع تعريف محدد له، لقول الباحث البريطاني (أنتوني غدنز): «في الوقت الذي يعرّف فيه الغرب الدين بالمسيحية والاعتقاد بالمثال الأسمى ويوم الدينونة، نجد أن هذا التعريف غير كافٍ لإعطاء فكرة عن ماهية الدين ككل لأن بالتأكيد هو ليس هاتين المسألتين فحسب لأن المسيحية كرسالة تتضمن الكثير من المعتقدات الغائبة عن حياة الناس في الغرب، بل إن هناك تنوّعًا كبيرًا في نسبة الاعتناق

ودرجة الإيمان ومدى ممارسة الطقوس المرتبطة بالدين حتى يصبح الالتزام بمثابة طابع فردي شخصي أكثر منه مجتمعي.

في بعض الأحيان تعمل المخيلة السوسيولوجية على تفسير ظاهرة الدين ليس من خلال الإطار الذي يكون عليه فحسب، وإنما أيضًا بالابتعاد عنها وملاحظتها موضوعيًا، وفي هذا السياق لا يمكن النظر إلى الدين على أنه مجرد وصفة أخلاقية وُضعت لتقنين وضبط تصرفات البشر كم ورد في الوصايا العشر ومزامير داوود وحكم لقمان أو تعاليم زرادشت وبوذا..وإنما في معطيات أبعد من ذلك سيما وأن بعض الديانات لا تسلم بمسألة «التعاليم المنزلة» اعتقادًا منها بأن الإله أسمى من أن يتدخّل في أفعال البشر لذلك ـ بحسب رأيها ـ ليس هناك علاقة بين عالم الألوهية وعالم البشر، ومن الملاحظات التي ترد سوسيولوجيًا عند تناول ظاهرة الدين:

* مثلما يعتقد بعض الناس أن الدين اعتقاد بألوهية واحدة، يعتقد آخرون بأن الدين ليس كذلك، ليس مقصورًا على الإيمان بإله واحد بل على عدة آلهة، كذلك إذا كانت الأديان التوحيدية تقول بوجود إله واحد (كما في الدين الإسلامي) أو بعدة أقانيم (كما في الديانة المسيحية: الأب والابن والروح القدس) فإن في ديانات كثيرة ليس هناك وجود لشيء من هذا على الإطلاق..

* إذا كان الدين يُفهم في أحد جوانبه على أنه شرح لبداية الخلق وتكوّن الكون ومصير البشرية كما الديانات التوحيدية مع التفسيرات العديدة لبداية الخليقة على الأرض من خلال آدم وحواء، يلاحظ في الديانات التعددية ليس هناك شيء من هذا القبيل.

* في الوقت الذي يرى فيه بعضهم الدين إيمان بالماورائي وبالحياة بعد الموت وبالجنة والنار ويوم الحساب، نجد لدى جماعات بشرية متدينة ليس هناك اعتقاد مطلق بهذا الإيمان (كل ما يذكرونه أن هناك صراعًا في هذا الوجود بين الخير والشر..).

من المناسب الإشارة هنا إلى أن كلمة دين في اللغات الغربية قد تكون مشتقة من الكلمة اللاتينية (RELIGARE) التي تعني وحدة الجماعة وهويتها،

أو من كلمة (RELIGERE) التي تعني الممارسة الجماعية إشارةً إلى طقوس تعبّد الجماعة، أما في اللغة العربية فتشير كلمة دين إلى مفهوم «المحاسبة» سواءً من الله (يوم الحساب/ يوم الدينونة) أو سواء من الناس ـ المجتمع (السيرة الحسنة/ الصيت الجيد/ السلوك القويم) ويبرز الدين في إحدى مفاهيمه على أنه مجموعة من الرموز المبجّلة لها من التقدير والاحترام مما يجعلها بمثابة طقوس وشعائر مقدسة يتوارثها الأجيال والأتباع. وتأخذ هذه الرموز المقدسة حيز الاهتمام ليس فقط لارتباطها بوجود إلٰه ما وإنما أيضًا لما لها من علاقة بمخلوقات وموجودات يوليها أفراد المجتمع التبجيل.

هذا يعني أن الطقوس والدين يتكاملان باعتبار الأولى ممارسة والثاني اعتقاد ولا تعتبر الطقوس خالية من أي معنى أو مجردة من الواقع إنما تعتبر معتقدات مشبعة بقيم ومبادئ يعتنقها الناس ويعيشون بها ومن أجلها، ففي وقائعها يكمن سر التكامل والاستمرار عبر الزمن حينما تحاول كل جماعة أن تنمّيها عن طريق إقامة الحفلات والشعائر في مناسبات مختلفة (عاشوراء/ جُنّاز الفصح) أو عن طريق الأخذ برموز معينة تجري بين الناس مجرى العادة والتقاليد كما يفعل الشرقيين بتعليق التمائم على الأطفال حديثي الولادة أو على مداخل البيوت والممتلكات أو كما تفعل عروس الريف البريطاني عندما تحمل في يدها حلقة معدنية على شكل حذوة حصان خلال زفافها اعتقادًا منها بأنّها تبعد كل شر وتقيها العين الحاسدة. مثل هذه الظاهرة يفسّرها علم الاجتماع على أنها «ممارسات» متواترة منذ أقدم العصور وهي على علاقة بإرث ثقافي أسطوري قد يكون صحيحًا وقد لا يكون وإنما في مكان ما يأخذ الناس بها على قاعدة: أن تؤمن بشيء أفضل من أن لا تؤمن؟ ولكن فحوى هذا الافتراض هو ما جعل الأنبياء يجهدون برسالاتهم نحو تعزيز الإيمان الحق والتشريع القويم وسفه المعتقدات الواهية، لأنه أن تؤمن بخالق عظيم واحد أحد أفضل من أن تؤمن بـ «تُرّهات».

* الدين من منظور سوسيولوجي:

لا زالت مقاربة الدين من خلال منظور علم الاجتماع متأثرة إلى حد

كبير بكتابات رواد هذا العلم وخاصة ماركس ودوركايم، وفي الوقت الذي يعتبر فيه بعض الباحثين أن ظاهرة الدين وَهمٌ في أساسها، يرفض آخرون مثل هذا الرأي، إذ يكفي أن تجيل النظر في مختلف الجماعات من أستراليا القديمة إلى طبقات المجتمع الهندي إلى الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا فالعصور الإسلامية، حتى تدرك كم يكون الدين موجودًا وحيويًا في حياة الناس اعتقادًا وممارسةً.

1 ـ ماركس والدين:

بالرغم من أفكاره المؤثرة في هذا الموضوع إلا أنه لم يدرس حقيقة الأديان بكل تفاصيلها، كل ما قدّمه في هذا الإطار يرتكز على كتابات فلاسفة القرن التاسع عشر وخاصة لوديج فيرورباش، الذي وضع عام 1841 كتاب بعنوان «أصل المسيحية»، يعتبر فيه الدين عبارة عن مجموعة من الأفكار وضعت من قبل بشر معينين على مر العصور، ثم وبطريقة ما نُسبت هذه الأفكار إلى قوة سماوية حتى تكتسب صفة القداسة والاعتبار ويكون لها التأثير القوي، لأن الناس لا تحترم ولا تعي تاريخها الطقسي إلا إذا كرّست أفعالها وممارساتها اليومية بمسائل إلٰهية، لهذا نفهم الوصايا العشر كيف تبدو على أنها قيم سامية أُعطيت لموسى حتى أصبحت ناموسًا يتبعها الذين دعاهم من العبرانيين إلى المسيحيين وغيرهم من المؤمنين عبر التاريخ.

وبرأي ماركس أن الأيديولوجيا المتمثلة في المناخ الفكري غير الثوري والمعتقدات الدينية الجامدة تمثل إحدى سمات الاغتراب لأنها تسعى نحو تشويه وعي الناس بالواقع المادي الذي يعيشونه فتظل الصورة المؤلمة للإنسان قائمة، لهذا يؤثر عنه مقولته الشهيرة: «الدين أفيون المجتمع» لأنه (الدين) يُرجئ كل سعادة بشرية في هذه الدنيا إلى حياة أخرى بعد الممات وليتحمّل الناس الظلم واللامساواة، لأن العدالة الحقيقية الموعودة تنال فيما بعد. وفي الوقت الذي يرى فيه ماركس الدين أهم عامل أيديولوجي يُفقد الناس القوة والمعنى من خلال ما تدعو إليه من تسامح ووداعة وعفو واستكانة على المقاومة تجاه قمع واضطهاد، يتوقع أن ينتهي الدين يومًا ما، لا باعتباره يمثل

قيمًا ساميةً وضعت من أجل الإنسانية وليس لأن القيم والمثل هي «طوباوية غير واقعية» بل لأن الكثير من المفاهيم الروحية تجسّدت خطأً في أشخاص جعلوا أنفسهم أربابًا حتى يهابهم الناس، من هنا ـ وبحسب رأيه ـ يجب إيقاف هذه الربوبية عن مثل هؤلاء.

2 ـ دوركايم والدين:

في كتابه «الصور الأولية للحياة الدينية» يقدّم دوركايم تحليلًا دقيقًا لطبيعة الدين وآثاره الاجتماعية، وقد بيّن فيه أن الدين ليس مسألة اعتقاد بإله أو بقوى غيبيّة فحسب، وإنما هو نسق من المعتقدات والممارسات التي تتصل بشيء مقدس (تابو) وهذه المعتقدات تتحدد بدورها في مجتمع واحد يسمى الكنيسة يضم كل الذين ينتمون إليها. يقصد دوركايم بتعريفه هذا أن الدين هو شيء اجتماعي وأن ما هو موجود في المجتمع ينقسم إلى مجموعتين مختلفتين: المقدّس والمدنّس، يرمز المقدّس إلى كل الأشياء التي وضعها الإنسان وتتضمن المعتقدات والطقوس والعبادات، والمدنّس إلى كل ما يجافي ذلك، وقد انطلق دوركايم في فرضيته من دراسته لقبيلة أريونتا البدائية (أستراليا) التي وجدها تبجّل شيئًا اجتماعيًا على أنه «المقدس» لديها، يمارس أفرادها طقوسهم بشيء من الهالة والقداسة حتى تصبح بالنسبة لهم بمثابة الطوطم[1] الذي يتمتع بقوة خفية مقدسة، تتخذه القبيلة رمزًا لها وراع يحميها، يبارك مواسمها وأنشطتها الجماعية، وظهور مثل هذه الأنشطة في ظلّ الطوطم هي ما تتيح فرصًا لظهور دعم التضامن الاجتماعي وتهيأ لبقاء المجتمع واستمراريته.

لهذا السبب يُمارس الدين بحيوية أثناء الحضور الجماعي في أماكن العبادة ومناسبات الموت والزواج والولادة. .هنا ثمة مشاركة جماعية يخرج الناس عن ذاتيتهم كي يقتربوا من الآخرين وحتى يتم الاقتراب بحميمية أكثر لا بد من الالتزام بمعايير أخلاقية تتفق عليها الجماعة. .فالحداد مثلًا ليس مجرد

(1) الطوهم (fotem) كناية عن حيوان أو نبات تنظر إليها الجماعات البدائية في احترام وخشوع دون وجود سبب معقول يدفعها إلى التبجيل، بل تعتبره بمثابة رمزًا لها وحاميًا تلجأ له في الملمات، كما يلعب دورًا محوريًا في الأعراف شبه الدينية.

تعبير عن الحزن أو مصاب أليم عند أهل الفقيد بقدر ما يشير في أدنى مفاهيمه إلى الواجب المفروض على الجماعة أن تتمثله وتجلّه، فشعائرية الموت لايمكن أن تتم إلا إذا اجتمع الناس «للتشييع» يخرج كل منهم عن ذاتيته بالالتقاء والمشاركة. وهذا ما قصده دوركايم في نظريته عن أصل الدين بقوله: «إن حياة الجماعة هي المصدر المنشئ والسبب الكافي للدين» وما الممارسات الدينية والمعتقدات في نهاية الأمر إلا إشارة إلى حياة جماعية موجودة.

3 ـ ريتشارد شيفر والدين:

على الرغم من تحديد دوركايم لمفهوم الدين بثنائية المقدس والمدنس إلا أن مثل هذه المفهوم يصبح مشوبًا باللبس وعدم الوضوح فيما هو المقدس؟ ومتى يكون الشيء مدنّسًا ومتى لا يكون؟ ذلك أن هناك مسائل وتفاصيل في حياة الناس اليومية تمارس وفق «ظرفيات»، فالتصرف/ الطُقس الذي يكون في حالات معينة محرّمًا قد لا يكون كذلك في ظروف أخرى، طاولة الطعام عند المسيحيين مثلًا هي كقطعة أثاث مركونة في إحدى الغرف إلا أنها تكتسب قدسيّة معينة حينما تكون مناسبة للقربان المقدس (العشاء الرباني)، كذلك الحال في مسألة الطعام والشراب، مع أنه طُقس يومي ومفترض القيام به على شيء من الضرورة إلا أنه غير جائز تناولهما عند المسلمين خلال شهر الصيام (رمضان) بل يصبح تناولهما انتهاكًا لحرمة الصوم، ويتحلل في الأيام التالية إلا بعضًا منه (لحم الخنزير/ الكحول...) من هنا يلاحظ في توجهات علم الاجتماع الحديث اعتبار الدين قيمًا وتقاليدًا تتدخل في حياة الناس اليومية لتترك تأثيرًا في الفعل والممارسة، ووفق هذا المفهوم يُدرك وجود الدين وفاعليته عبر التشطير الاجتماعي القائم على مدى درجات الإيمان به وفق ثنائية: مؤمن ـ غير مؤمن/ ملتزم ـ غير ملتزم / معني ـ غير مبال / إلخ.

خلال استطلاع للرأي حول البنية المعرفية بين الثابت والمتحول (القرية اللبنانية نموذجًا) وجه للعينة المستجوبة سؤالًا يتعلق بالجانب الديني في حياتهم اليومية، ومدى ممارساتهم للواجبات، فتبين أن 26% يمارسونها بشكل منتظم، وأن 24% بشكل غير منتظم، بينما أشار من نسبتهم 1 ٪ إلى نعم

(دون أن يحددوا طبيعة هذه الممارسة) في مقابل 11% صرحوا بأنهم لا يمارسون واجباتهم الدينية ألبتة[1].

هل لا يمكن الحكم على جماعة دينية إلّا من خلال قدر التزامها؟ وهل كل من ينتمي إلى جماعة ولا يمارس الفعل يصبح منتميًا بالانتساب لا بالاعتناق التام وفق ما يُقصد به «الانتماء الهويّاتي»؟ بالنسبة لباحثين في علم الاجتماع يعتبر الالتزام مؤشرًا هامًا في تحديد هوية هذه الجماعة، لأن الدين ليس مجرد نصوص وعقائد وكتب مقدسة محفوظة وشرائع سماوية أُنزلت لتُجلّ وتحترم بل هو سلوك ديناميكي يؤثر في الحياة اليومية للناس، متصل بمؤسسات المجتمع اتصالًا فاعلًا مؤثرًا ومتأثرًا في آن، يقوم بوظائف ويلبي حاجات. . فالالتزام بالدين يفسر وجوبه ـ اجتماعيًا ـ بالاحتمالات التالية:

- ✓ إنه السبيل الذي يؤدي إلى حالة من سلام النفس والتخفيف من التوتر.
- ✓ إنه يحول دون التدهور القيمي والاجتماعي وحتى الجسدي (بالابتعاد عن المنكرات كالتدخين والخمر والزنا. .).
- ✓ انه يقدم الدعم الاجتماعي الذي توفره أماكن العبادة ومؤسساتها، إذ تُبين أن المترددين على مراكز العبادة بانتظام وعلى حضور المناسبات الدينية غالبًا هم أناس أقل عُصابية، وذو نفسية إيجابية لما يتمتعون به من شعور بالرضا عن الذات بفعل الإيمان.

4) ـ الدين بين الفكر الإسلامي والمسيحي:

في الفكر الإسلامي هناك تعريفات اصطلاحية انبثقت عن المعنى المتداول عند العرب وعن النص القرآني، فمن الناحية اللغوية فإن كلمة الدين تتضمن علاقة بين طرفين يعظّم أحدهما الآخر ويخضع له، فإذا وصف بها الطرف الأول كان خضوعًا وانقيادًا، وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمرًا وسلطانًا ولعله هو هذا المفهوم المقصود مما ورد في سورة الصافات ﴿أَإِنَّا

(1) مأمون طربيه، «القرية اللبنانية في عصر التلفزيون» (بُنية معرفية بين الثابت والمتحول) أطروحة أعدّت لنيل شهادة الدكتوراه اللبنانية، الجامعة اللبنانية، بيروت، 2000 (غيرمنشور).

لَمَدِينُونَ﴾[1] أي خاضعون ومملوكون، وأذا قصد به طبيعة العلاقة بين الطرفين كان هو الطريقة المنظمة لتلك العلاقة أو الشكل الذي يمثلها، كما في سورة يوسف ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾[2] أي مُلك الملك. أما من الناحية الاصطلاحية فمن أبرز التعريفات ما تعتبر الدين «وضع إلٰهي سائق لذوي العقول باختيارهم إيّاه إلى الصلاح في الحال، وهذا يشمل العقائد والأعمال ويُطلق على ملة كلّ نبي، وقد يُخصّ بالإسلام كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [سورة آل عمران: 19] ويضاف إلى الله لصدوره عنه، وإلى النبي لظهوره منه، وإلى الأمة لتدينهم به وانقيادهم له[3].

أما في الفكر اللاهوتي المسيحي، فأصل كلمة الدين من دان. كما ورد في الإنجيل: دان يدين، ودينونة: حكم الله على الناس بحسب أعمالهم. وقد اختص يسوع المسيح بصفة الدينونة فهو الديان الذي يحاسب جميع البشر عن أعمالهم خيرًا كانت أم شرًا، ويرى القديس أوغسطين الكبير أن كلمة «دين» تعني الرابطة أو العلاقة المشتركة بين الإنساني والإلٰهي علاقة متينة بين النفس الإنسانية والذات الإلٰهية المقدسة، ولكن علاقة كهذه تعد ثابتة كالطريق غير خاضعة للتغير أو التطور.

* لماذا يدرس علم الاجتماع الدين؟

عني الباحثون في علم الاجتماع بالدين باعتباره جملة من العقائد التي قدمت تفسيرات عديدة لقضايا الإنسان والكون والمجتمع والطبيعة، حاول أن يقدم إجابات على كثير من الأسئلة كان يمكن من الصعب إدراكها بالنسبة للكثير من المتأملين في مصيرهم وطرق تعاملهم وأمور حياتهم. كذلك اهتم السوسيولوجيين بالدين باعتباره مؤثرًا في حياة الناس اليومية فهو برأي بعضهم «الرابط الأساس للجماعات والمُلهِم لترابطهم وتعاونهم وتكافلهم»، بل هو

(1) سورة الصافات، الآية: 53.

(2) سورة الملك، الآية: 76.

(3) الدعاة الجدد والشباب، (مقالة)، محمد مصباح، مجلة إضافات، المجلة العربية لعلم الاجتماع ـ العدد الثامن. خريف 2009، بيروت، لبنان.

الضابط الأول والمنظم لكثير من تصرفات الناس (الوازع الديني) وإننا لنلاحظ ذلك عندما يمتنع الناس عن الإتيان بأفعال جرمية بحق ذاتها (الانتحار/ الزنى) أو بحق غيرها (الاعتداء/ السرقة/ الخيانة) فهنا المؤمن الحق لا يأتي بفاحشة، بل هو مستقيم لما يقدمه له الإيمان من:

1 ـ معنى للحياة يدفعه إلى أن يتخذ موقفًا إيجابيًا منها فيُقبل عليها ويستمتع بها ويعمل لأجلها.

2 ـ مجموعة من المعايير وقواعد السلوك التي تنظم علاقات الناس ببعضها البعض.

3 ـ تفسير للواقع وما يترتب عليه من مسؤوليات.

4 ـ تخفيف ـ وربما هذا الأهم ـ من مظاهر القلق والخوف، فقد أظهرت بعض الدراسات المتعلقة بالقيم كيف كان للدين دورًا هامًا في مراحل الضيق الاقتصادي والنكسات الأمنية والخوف المستمر على الحياة، عبر توفير نوع من الأمان واليقين والاطمئنان وسط ظروف قاسية ومضطربة، ذلك أن الخطر المادي الذي يهدد الفرد يولّد الحاجة إلى الإيمان بقوة عليا، فإذا ما زال جانب كبير من الخوف والقلق وحل محلهما شعور بالاطمئنان أدى إلى استمراره في ظروف آمنة يحفظها الرجاء. وكأن الدين والإيمان وجدا أصلًا كدواء للخوف ورفيقًا لظروف الحياة الصعبة ووسيلة للبركة والطمأنينة، ولعل ما يقوم به المؤمن أو الملتزم من صلاة ودعاء وابتهال وتضحية وإحسان وصدقة ما هو إلا رغبة منه للتخفيف من حدة القلق اليومي وردًا لهواجس قد تطرأ.

يهتم علم الاجتماع بالدين باعتباره قواعد مشتركة بين جماعة من الناس، مثل هذه القواعد تصبح بمثابة دعائم تبرز من خلال منظومة من الأخلاقيات تجلى في:

1 ـ **المعتقدات** religious beliefs، تعتبر الاعتقادات بمثابة «بيانات» عن جماعة معينة لأيّة ديانة ينتمون، كما أنه من خلالها يُدرك ما يتعلق بهذا

المعتقد أو ذاك: كأن يُفسّر لماذا يصلي أبناء هذه الديانة هكذا؟ ولماذا آخرون يصلون بشكل مختلف؟ كذلك الحال لمسائل الاعتقاد الغيبي الأخرى حيث بعض الناس يؤمنون بالحياة ما بعد الموت وبلانهائية الكون والقوة العظمى التي تسيّره وبقوى ماورائية موجودة وبعضهم قد لا يؤمن. أو يؤمنون بنسب متفاوتة بحسب المعْلم الديني كما بينت إحدى الدراسات الميدانية في تسع دول غربية إزاء المعتقدات التالية:[1]

	الجنة %	النار %	التردد على الكنسية %	الله %	بالحياة ما بعد الموت %
فرنسا	30	16	10	57	34
بريطانيا	53	25	13	71	44
ألمانيا	31	13	19	64	38
هولندا	34	14	21	61	39
السويد	27	7	4	38	31
إيطاليا	45	36	40	84	54
إسبانيا	48	27	65	96	78
أمريكا	81	65	43	93	70
كندا	67	38	33	86	61

وعدا عن ما تقوم به مختلف الجماعات الدينية من معتقدات تظهر في العبادات من صلاة وصوم وحج وأدعية وأناشيد وتراتيل وأحكام مختلفة تنبئ عن «الاعتقاد الجماعي المخصوص بكل طائفة»، تتجلى كذلك صورة المعتقدات بوجهها الأمثل في خصوصية المناسبات واحتفالاتها الموسمية، فالمسلمون مثلًا يلتمسون ـ وإلى جانب عيدي الفطر والأضحى ـ بركة ليلة القدر (باعتبارها بدء نزول القرآن من السماء) فيكون التعبّد والتهجّد طوال الليلة وما يليها من ليال في أواخر شهر رمضان، وهناك أيضًا ذكرى الإسراء

(1) عن الدراسات الإحصائية الأوروبية، مجلة الإيكونوميست، لندن، 1992.

والمعراج التي يجلّونها باعتبارها معجزة نبيّهم في ليلة من ليالي سنوات نبوته الأولى حيث أسري من مكة (السعودية) إلى القدس (فلسطين) ثم عرج إلى السماء بصحبة الملاك جبريل، وكذلك من مناسباتهم ليلة النصف من شعبان وذكرى المولد ورأس السنة الهجرية.

أما بالنسبة للطوائف المسيحية فهناك: أسبوع الآلام (يحتفلون بآلام المسيح وموته كما عاشها المسيحيون الأوائل) وخميس الأسرار(وفيه يُحتفل برتبة تكريس الزيوت المقدسة ـ وهي زيوت العمادة ومسحة المرضى ـ والميرون ـ وهو زيت الزيتون الممزوج بالعطور يستعمل في سرّي التثبيت والكهنوت) الجمعة العظيمة (وهو يوم مميز في تقليد كنيسة المسيح، يصوم فيه المؤمنون، يمتنع الكهنة عن القداس مكتفين برتبة تدعى «رسم الكأس» (القداس السابق تقديسه) يلي ذلك مسيرة درب الصليب وفق ما يعرف بالجُنّاز. ثم هناك أخيرًا أحد الفصح وفي هذا اليوم تحتفل الكنيسة جامعةً برتب مختلفة، لاعتقادهم بأن المسيح عينه احتفل به مع تلاميذه بعد الدفن وقبل الصعود.

2 ـ **الطقوس** religious rituals ويقصد بها صورة التعاليم والشعائر الظاهرة في الأفعال والأحكام، في بعض الديانات يعتبر القيام بالطقوس قمة الالتزام الروحي والبعد الظاهري عن مدى الإيمان من قبل الملتزمين بدين معين بحيث يتوجب عليهم الأخذ بالواجبات المتعلقة بدينهم، معظم الطقوس في الثقافة الدينية تركز على الخدمات التي ينبغي أن يقوم بها أحدهم كي يبرهن: كم هو مؤمن؟ وغالبًا ما تمارس الطقوس في المزارات، والمزار بمعناه الفعلي هو حرم مقدس يقصده الناس للتشفّع والنذر واستجداء العجائب، وقد كتب المؤرخ الروماني (تيدوريطس القورسي) في منتصف القرن الخامس عنها «**هناك في هذه المزارات يصلي من عنده الصحة لحفظ صحتهم، والمرضى يصلون ليتصروا على أمراضهم ويتخلصوا منها، ومن ليس لديهم أبناء يلتمسون أولادًا والنساء العاقرات يتهلن ليصبحن أمهات، فهذا ما تظهره النذور المعلقة والله في حلمه يقبل تقديماتهم الصغيرة لأنه ينظر لا إلى التقدمة بل إلى الذي يُقدّم**» من هنا أصبح لدى الناس مكانة للمقام أو المزار في معظم دول العالم حتى أصبح لكل طائفة أو مذهب أمكنة يسكن فيها ـ باعتقادهم ـ

أولياء صالحين أو قديسين، يقصدها الناس تبرّكًا وتعبيرًا عن شكر والتماسًا لخير وتقديمًا لعربون ثناء على نجاة من حادث أو شفاء من مرض.

في لبنان مثلًا تكثر المزارات مسيحيًا على اسم السيدة العذراء (**كنيسة السيدة في صور/ كنيسة السيدة في بيروت/ كنيسة السيدة في جبيل / كنيسة السيدة في قنوبين / سيدة إيليج ..وغيره بالنسبة للطائفة المسيحية**) وبالنسبة للشيعة هناك ما يسمى بالعتبات المقدسة التي تطلق على أضرحة الأئمة المعصومين من أهل البيت أو أبنائهم (**كضريح الإمام علي في النجف/ ضريح الإمام حسين في كربلاء/ ضريح الإمام الرضا في مشهد ـ إيران/ مقام السيدة زينب في سوريا**) وبالمثل هناك مزارات لدى طائفة الموحدين الدروز التي تعرف لديهم بالمقامات بُنيت تكريمًا لأثر نبي أو استبراكًا لأهل فضل في الطاعة والعبادة، لهذا جرت العادة لديهم أن يزوروا بعضها في المناطق والجهات بموعد سنوي محدد كي يتآلفوا في الله ببركة صاحب الأثر أو الضريح وأهم المزارات المعروفة لديهم: (**النبي شعيب في فلسطين / النبي أيوب الشوف ـ لبنان/ النبي هابيل في ضواحي دمشق/ ..**) وبالنسبة للسُنّة هناك: **مقام أيوب**، نسبة إلى الصحابي أبو أيوب الأنصاري باعتباره أول صحابي استقبل الرسول في المدينة، وخرج مع الفاتحين نحو بلاد الشام، هو موجود في إستانبول (تركيا) ومقام النبي يحيى (الجامع الاموي ـ سوريا) ومقام خالد بن الوليد (في مدينة حمص ـ سوريا)، ومقام أمّ عطية (قبرص).

ويرى علماء الأنتروبولوجيا بأن الطقوس الدينية أو الاجتماعية على حد سواء هي بمثابة تكرار نمطي لنشاط ما، ولا يتكرر هذا النمط السلوكي فقط نتيجة للعادة بل لأنه اكتسب دلالة باطنية عميقة يمارس بمغزى اجتماعي أو ديني ليؤدي وظائف أبرزها:

- ✓ الاحتفال بالانتصارات (إحياء ذكرى حرب/ موقعة).
- ✓ تجديد المعالم الخاصة بالمناسبات ذات الطابع الاجتماعي (حفلات الزفاف / مراسم الموت).
- ✓ تقوية أواصر التوحد مع الجماعة وإعلان الانتماء إليها (الاختتان ـ العمادة).

- ✓ استرضاء الآلهة التي تتعبّدها جماعة ما (تقديم القرابين/ توزيع حنطة ـ مفهوم الفدو).
- ✓ ممارسة تأثيرشعائري في البيئة (صلاة الاستسقاء/ ورقص القبائل لجلب المطر).
- ✓ التواصل مع العالم الماورائي (جلسات التصوف / حلقات الزهاد/ . .).

3) ـ **الشعائر** religious tradition : ويقصد بها مجموعة الأفعال المرعية والممارسات التي تنظمها قواعد نظامية من طبيعة مقدسة أو موقرة ذات سلطة قهرية ملزمة ضابطة لتحقيق غايات ذات وظيفة محددة. والشعائر ليست إلا طقوسًا اجتماعية والاحتفال العام منها تعيين أهمية المناسبة، تؤثر في الأفراد من غير أن يتدخل العقل في الأمر، وظيفتها أن تنقل أحاسيس تتصل بحقائق كبيرة وبعقائد متوارثة، وهي وظيفة رمزية تمارس بصورة آلية في مجرى الحياة اليومية باعتبارها أداة تنظيمية للوحدة الجماعية، كما في ظاهرة الاحتفال بمناسبة عاشوراء المخصوصة بالجماعة الشيعية، التي يحتفلون بها عامًا بعد عام منذ استشهاد الإمام الحسين بن علي بموقعة كربلاء (العراق) باعتبارها «ذكرى انتصار الدم على السيف» ومعركة الحق والعدل ضد الباطل والظلم. . حين تواجه الإمام الحسين وأهل بيته وبضعة وسبعون رجلًا وامرأة بجيش جرار يزيد عن الثلاثين ألفًا مدججين بالسيوف والرماح والنبال، فاستشهد يومها أبناؤه وأطفاله نحروا ومُنع عن آل بيته الماء ليهلكوا ظمأً في تلك الأيام الرمضاء، هذه الأحداث المأساوية يعيد إحياؤها الأتباع بشيء من التفجع واللوعة والحسرة تأثرًا لما جرى لأهل البيت وما أصابهم من ظلم وعنت، لهذا تتجدد كل عام وتذرف الدموع السخية حزنًا على وقع ما يعرف بينهم «وقائع السيرة الحسينية»، لقد تحوّل الحدث ـ الموقعة في الوجدان الشيعي إلى ملحمة تاريخية لم ينضب زخمها منذ خمسة عشر قرنًا، أصبح فيها الإمام الحسين رمزًا للشهادة وأصحابه مثالًا أعلى للشهداء. .ويعاد إحياء هذه المناسبة خلال الأيام العشر الأوائل من شهر محرم (من التقويم الهجري) حيث يستعظم المشاركون هول الجريمة وفداحة الخسارة ومقدار المصائب بآل البيت عبر ما يعرف بينهم بمجالس العزاء. وعليه تظهرالشعائر برمزيتها ودلالاتها على أنها

مناسبة تنظيمية متواترة تاريخيًا لتعمل على تثبيت قواعد سلوك جماعية والتمسك بالموروث الاعتقادي شعائر وشعارات.

4 ـ **الممارسة** religious experience يدل هذا المصطلح على الشعور العميق الذي يختبره أحدهم أو يتجلى لديه عندما يكون في حالة التزام كلّي لمعتقدات وتعاليم دينه، كما هو الحال مع المتعبدين الذين يغوصون في أعماق دينهم حتى يصبحوا على شيءٍ من التصوّف، وحال النساك الذين يعيشون بعيدين عن العالم في حياة صعبة عندما يأوون إلى مغارة أو صومعة لتكريس حياتهم في عبادة الله بالصوم والصلاة والأذكار، يذكر التارخ الإسلامي بعضًا من هؤلاء كرابعة العدوية/ ومحيي الدين ابن العربي، وفي التاريخ المسيحي يُعتبر الرهبان الذين يعيشون حياة نسكية داخل بعض الأديرة النائية مثال على ذلك ولا زال نسّاك جبل آثوس في اليونان هم النسّاك الأكثر شهرة في العالم حاليًا. وتتميز الممارسة بأن المظهر الغالب عليها يكون شعائريًا، أي هناك استجابة عاطفية للمناسبة تتضمن إقامة الشعائر، وتنطوي في جانب منها على مجموعة من المحرمات المقدسة والأمور والأفعال والمواقف التي يجب على الأفراد القيام بها وبخاصة إذا كانت تستند إلى الجزاء الديني والرادع الخلقي.

فعل الممارسة الصافية تفضي إلى حالة من الروحانية كحال الحجاج الذين يقصدون أماكنهم المقدسة ويمارسون شعائر ينسون معها وجودهم الدنيوي عندما ينصرفون إلى حالة تعبّد يصلون معها إلى اندماج كلي بروحانية المأثور الديني، فالحاج المسلم مثلًا حين يريد الخروج إلى الحج (مكة المكرمة في السعودية) يترك شؤون الدنيا ـ لدرجة يخلع ثيابه المعتادة ويلبس أخرى بيضاء يطلق عليها ثوب الإحرام ـ ويتوجّه في رحلته نحو عبادة خالصة، يقوم خلالها بممارسة شعائر ويتلو أدعية ويستلهم بركات الله وغفرانه. من هنا تعتبر هذه «الممارسة» بالنسبة لهم نقطة تحول إيماني بين عالم قد يكون مليئًا بالخطايا وعالم زاهد يصبح معها المؤمن الحق على شيء من النقاء كيوم ولدته أمه كما تقول كتب المسلمين المتواترة في وصف مآل الحج وتأدية شعائره. ومثلما مناسك الحج عند المسلمين التي تعرف بينهم برحلة العمر، هناك ما

يعرف بال: born again عند المسيحيين حيث يُختبر إيمان بعضهم بولادة جديدة لمرة واحدة في حياته حينما يلتزم تعاليم السيد المسيح بالغفران والتثبيت.

المعتقدات، الطقوس، الشعائر، الممارسة، هي مرتكزات ديانة أو مذاهب عقائدية، ولكنها في الوقت ذاته هي هوية الجماعة في خصوصية العلاقة باللاماورائي والغيبي، ويفعل فعله ليس في أن تكون الهوية والجامع وإنما فيما تمدّه من راحة نفسية للملتزمين بها، فقد بينت الدراسات النفسية أهمية الروحانية في العالم الاجتماعي والعلائقي وعلى الصعيد النفسي، «فعندما يكون أي منّا مشبعًا بإيمان عميق فإنه في حقيقة أمره ينمو عاطفيًا في علاقات طيبة»، إن الأشخاص الذين يتسمون بإيمان وبعد روحي يظهرون بأنهم أكثر إيجابية في تفكيرهم وفي تعاملهم مع الآخرين وغالبًا ما يكونوا أكثر نجاحًا في أعمالهم كما أنهم أكثر تفاؤلًا عبر توقعهم دائمًا الأشياء الجيدة وهم بالتالي أكثر مودة للزملاء والأشخاص الآخرين الذين يعملون معهم، إنهم وباختصار: أكثر إيجابية وأكثر إيثارًا للمساعدة وأكثر تقبلًا للآخر وأكثر صحةً من الناحية الذهنية.

ثانيًا: المعتقد الخرافي:

تقضي دراسة السلوك الديني من زاوية علم الاجتماع الإشارة إلى التمييز بين الدين الخالص القائم على النصوص والشريعة والأحاديث الصحيحة المتواترة، وهو ما يمارس على الأغلب من قبل الطبقة المثقفة والمدركة وأبناء المدن وفي الأوساط المتعلمة وبين الدين الذي يعتبره البعض «شعبيًا» ويتمثل في الاختبار الروحي وعلاقة المؤمن بإله عبر أولياء ومزارات، مثل هذا التعبد قائم على تأويل ورموز وصور وأشخاص أكثر مما هو قائم على قواعد شرعية مجردة، وغالبًا ما يمارسه البسطاء من الناس العاجزين عن الفهم المجرد لمقتضيات الدين والذي غالبًا ما يشطحون نحو ممارسات تعبدية خرافية قد لا تكون من الدين في شيء فتسري بينهم مسرى العادة حتى تصبح بمثابة عبادات.. **ولكن ما سر اتخاذ الناس بالمعتقد الخرافي؟.**

يعتبر المعتقد الخرافي بديلًا شعبيًا للنص الديني ونوعًا من الفهم الملموس لنص ديني مجرد يصعب فهمه، فالمزار مثلًا اجتهاد لعلاقة مادية يومية عند الطلب لحاجات الناس وتفاصيل حياتهم، كما في المعبد (المسجد أو الكنيسة) يتم الاتصال الروحي بالله عبر الصلاة ثم ينتقل المؤمن إلى المزار حيث الهموم والمشاكل والأزمات المفاجئة ليتلمّس البركة في حل فوري وتلبية عاجلة ومن هنا سر تقديم القرابين وذبح الفدو وإقامة الموالد إيفاءً لنذر حيث يشعر بعدها الناذر بالراحة النفسية وبأن عبئًا زال عن كاهله). وهذا ما أحدث ولا زال يحدث صراعًا في عالم الدعاة والمبشرين الذين يدأبون في إعلان تعاليم الدين الصحيح خوفًا من أن ينزلق الناس في متاهة «تعدد الآلهة» المرفوضة، يبدو أن هناك نوعًا من الازدواجية في حياة الناس الدينية بين قطبي إيمان: دين توحيدي لله خالصًا، واعتقاد خرافي ما برح الكثيرون يقفون عنده دون أن يدروا ماهيته وإنما بالنسبة لهم هو بمثابة محض اعتقاد.

في سنة 1996 سألت إحدى مؤسسات استطلاعات الرأي حوالي 1000 أمريكي فيما إذا كانوا خرافيين، فقال 53% منهم بأنهم كذلك قليلًا، واعترف 25% بأنهم خرافيون كثيرًا أو نوعًا ما، وقد كشف استطلاع آخر بأن 72% من العامة يحتفظون بتعويذة واحدة على الأقل لجلب الحظ الطيب أو لدرء نحس. . وثمة سبب بالطبع وراء اعتبار هذه المستويات العالية من التفكير الخرافي رغم أن العديد من الناس لا يقرون الاعتراف بإيمانهم بمثل هذه المعتقدات الخرافية إلا أن التجربة بينت ـ وبعد أن أُخضع بعضهم لاختبار معملي ـ كيف أنهم يقعون فيها دونما وعي كامل لماهيتها، والمثال على ذلك أن 12% من الناس قالوا بأنهم يتجنبوا السير تحت السلالم في الشارع لما في ذلك ـ باعتقادهم ـ نذير شؤم وفأل غير جيد. . . وهنا تساءل الباحثون إذا كان ذلك التصرف يعكس فعلًا المستوى الحقيقي للسلوك والاعتقاد الخرافي؟ وللوقوف على حقيقة الأمر أُسند إلى الحائط سلّمًا في وسط بلدة مزدحمة وقد ذهل (الباحثون) حين اكتشفو أن أكثر من 70% من الناس خاطروا النزول إلى الطريق حيث السيارات بدل المرور من تحت السلم التي على الرصيف.

وبالسياق ذاته تبين ـ وخلال دراسة ميدانية عن البنية المعرفية بين الثابت

والمتحول في الريف اللبناني (2000)[1] ـ بأن هناك شملة من المعتقدات التي تمارس على أنها بمثابة أحكام اجتماعية ومعايير منمطة وأحيانًا مقدسة (تابو)، وقد لوحظ بعض هذا المجمل الاعتقادي بشكليه الإيماني الصحيح إلى جانب الخرافي المتوارث منذ أقدم العصور، وخاصة ما يتعلق منها بميثولوجيا الصحة والمرض والمستقبل والغيب والكون والطبيعة والناس، وقد عمد فريق البحث إلى عرض جملة من المعتقدات تتعلق بحياة الناس اليومية تتضمن أمور مثل: صيبة العين/ زيارة المقامات/ وفي النذور/ التبصير والكتبة/ الطب الشعبي/ العادات والتقاليد.. وغيرها لتأتي النتائج على الشكل التالي:

- ✓ **في صيبة العين اعتقد من نسبتهم (69%) بصحة وقوعها بينما رفض (31%) الإيمان بها.**
- ✓ **في زيارة المقامات وأضرحة الأولياء والقديسين رأي من نسبتهم 61% بصوابية وجوبها مقابل 33% لم يروا ذلك.**
- ✓ **في وفي النذور آمن من نسبتهم (83%) بأهمية دورها في مقابل (15%) لا يعتقدون بهذه المسألة.**
- ✓ **في التبصير انخفضت نسبة الإيمان بها إلى (17%) في مقابل (81%) لا يؤمنون بها ألبتة، في حين تأرجحت مسألة الإيمان بالأحجبة والكتبة بين أكثرية لا يؤمنون بها إطلاقًا (62%) إزاء أقلية (32%) تؤمن بها كأمور تحصل.**
- ✓ **في الطب الشعبي، 62% رأوا صحة مفعول هذا الطب بينما لا يعتقد من نسبتهم 32% بهذا الطب.**
- ✓ **في العادات والتقاليد الخاصة بالأعياد والأفراح والأحزان صرح من نسبتهم (90%) بحسنة هذه العادات ودورها.**

يصنف بعض السوسيولوجيين ما يتضمنه التراث الشعبي من اعتقادات خرافية متنوعة في:

- ✓ الاعتقاد بالكائنات العلوية والسفلية كالجن والعفاريت والأرواح.

(1) مأمون طربيه، القرية اللبنانية عصر التلفزيون، سبق ذكره.

- ✓ الاعتقادات الخاصة بالتشاؤم أو بالتفاؤل من أشياء وأفعال أو التوقي مما يجلب النحس (الأحجبة).
- ✓ الاعتقادات التي لها علاقة باستقراء الغيب والكشف عن المستقبل بقراءة الكف وما يطلق عليه «ضرب الودع».
- ✓ الاعتقادات المتضمنة الإيمان بالسحر والتعزيم من خلال أخذ الأثر وعمل الخواص السحرية.
- ✓ الاعتقاد بالأولياء والوسطاء والإيمان بالهبات والقرابين.
- ✓ الاعتقاد بالطب الشعبي وفيه العلاج بالكي والأعشاب والرقية والزأر.
- ✓ الاعتقادات المرتبطة بعادات يومية أي ما يدور حول الولادة والختان والخطبة وهدايا العروس والزفاف والموت.
- ✓ الاعتقادات المتعلقة بالمواسم الزراعية أو الزمنية أو الأعياد والموالد.

الفرق بين الدين والتدين:

يعني الدين ـ وكما أشرنا ـ نسق من المعتقدات يرتبط بشيء مقدس، وعلى نحو مخصوص هو فعل إيمان يهدي إلى الحق في الاعتقادات ويرشد إلى الخير في التعامل، أما التديّن فمقصود به نمط سلوكي وأسلوب حياة والتزام يومي بأفكار المعتقد الديني وتعاليمه تجاه الخالق والمجتمع، يتميز التديّن بالإرادة لتعديل السلوك استجابةً لمضمون العقيدة الدينية، وإذا شئنا التحديد فإننا نقول بأن الدين هو النظرية والتديّن هو التطبيق، باعتبار الدين هو مجموعة الأفكار والمعتقدات الموجهة والنموذج المعياري الذي يستمد منه المؤمنون معنى الوجود وتفسيراتهم عن الله والكون والطبيعة، وبهذا المعنى هو ثابت لا يتغير، أما التديّن فهو إنزال هذه القيم والمعايير من مستواها المجرّد الموجود بين دفتي الكتب المقدسة إلى الواقع عبر جملة ممارسات والسير على نهجها وفق أصول وتعامل وعلى أنماط منها:

- **التدين الفكري:** وهو ينحصر في دائرة المعرفة حيث نجد الشخص يعرف الكثير من أحكام الدين ومفاهيمه ولكن هذه المعرفة تتوقف عند الجانب

العقلاني الفكري ولا تتعداه إلى دائرة العاطفة أو السلوك، فهي مجرد معرفة عقلية وربما يكونون بارعين في الحديث عن الدين ولكن لا يلتزمون بتعاليمه في حياتهم اليومية.

- **التدين العاطفي**: نجد أن الشخص يبدي عاطفة جارفة وحماسًا «كبيرًا» نحو الدين، ولكن هذا الحماس لا يواكبه معرفة جيدة بأحكام الدين ولا سلوكًا «ملتزمًا» بقواعده.

- **التدين السلوكي**: تنحصر في دائرة السلوك، حيث نجد أن الشخص يقوم بأداء العبادات والطقوس الدينية ولكن بدون معرفة كافية بحكمتها وأحكامها وبدون عاطفة تعطي لهذه العبادات معناها الروحي. ولكنه يؤدي هذه العبادات كعادة اجتماعية تعوّد عليها.

- **التدين النفعي**: نجد أن الشخص يلتزم بالكثير من مظاهر الدين الخارجية للوصول إلى مكانة اجتماعية خاصة أو تحقيق أهداف دنيوية شخصية.

وفي هذا السياق تبيّن للباحث المغربي محمد مصباح من خلال دراسة ميدانية[1] حول الدعاة الجدد والشباب الجامعي في المغرب وجود ستة أنماط من التدين عند الشباب المغربي وهي:

1 ـ **نمط التدين الرسمي**: تتكون الهوية الدينية الرسمية من ثلاثة عناصر: المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوف السنّي، يهدف هذا النمط إلى توظيف كل مؤسسات النظم القائمة لمصلحة المنظومة الدينية الرسمية.

2 ـ **نمط التدين التقليدي**: وتعتبر الزوايا والأضرحة من أهم البنى الدالة عليه وهي ترتبط وظيفيًا بنمطي التدين الرسمي والشعبي، فالأول يضفي عليها الشرعية والثاني يزودها بالعنصر البشري.

3 ـ **نمط التدين الشعبي**: ويقوم على دعامة اعتقادية مفادها أن الأولياء يمتلكون القدرة على منح البركات وقضاء الحاجات لتقربهم من الحضرة الإلٰهية

(1) «الدعاة الجدد والشباب»، محمد مصباح، مجلة إضافات، سبق ذكره.

ـ حسبما ما يعتقدون ـ أو أن لديهم القدرة على التوسط بين الله والبشر.

4 ـ **نمط التدين الطائفي**: أنه تدين راديكالي تتبناه بعض الحركات الاجتماعية وتنزع نحو الحفاظ على ما درج عليه المجتمع من عادات وسلوكيات دينية مستوحيًا طقوسه من مذهبية دينية خاصة.

5 ـ **نمط التدين السياسي**: ويمثله الحركات السياسية التي تهدف نحو تغيير الأشكال والرموز القائمة واستبدالها بأخرى من خلال إعادة قراءة التراث وتأويله بشكل أكثر مرونة من نمطي التدين التقليدي أو الطائفي.

6 ـ **نمط التدين العصري**: الذي بدأ يظهر في أوساط الشباب بشكل واسع نتيجة لشيوع الفضائيات والمواقع الإلكترونية الدينية، وهو تدين فردي يتميز بنوع من الاستقلالية تجاه باقي أنماط التدين الأخرى، لم تتحدد معالم هذا النمط الفكرية بشكل كافٍ مما يحتاج معها إلى مجهود نظري للتأصيل واكتساب شرعية له في الواقع.

يمكن مقاربة ظاهرة التديّن عند الشباب العربي مما هو ظاهر، فالملاحظة السوسيولوجية تبين تطور تديّن الشباب اليوم بشكل مختلف إلى حد ما عن تديّن أسلافه، هذه الفئة أصبحت تتعامل مع الدين بوعي أكبر مبني على اختيار شخصي أكثر منه تقليدًا للأجيال السابقة، أصبح يشكل لعدد منهم مؤسسة أساسية في حياتهم تنعكس في كافة مناحي الحياة لقد أصبح ما يمكن تسميته بالتدين العصري إلى جانب التدين التقليدي، في الأول هناك تدين يتميز بنوع من الاستقلالية النسبية تجاه باقي المؤسسات الدينية الأخرى سواء المدنيّة أو الرسمية ويعود سر انتشاره إلى حركة الدعاة الجدد عبر الفضائيات بشكل مختلف عن الوعظ التقليدي، مثل هذا التطور على مستوى تأثير الدعاة الجدد في الشباب العربي عامة، أرسى حالة التزام مغايرة عن حالة التدين السائدة عند العوام لما يقوم به هؤلاء من خطاب استيعابي لمشاكل الشباب إزاء ما يواجهونه من تحديّات معاصرة في حياتهم اليومية على مستوى العيش والسلوك والعلاقة مع الجنس الآخر وقضايا الهوية والانتماء والانفتاح ومسائل الاختلاط وعمل المرأة وتنظيم الأسرة، لنشهد نتيجة ذلك ما يمكن تسميته

«ظاهرة التديّن الجديد»، التي أخذت تواكب ليس فقط أسئلة الشباب المستجدة وإنما لتطرح أشكالًا جديدة من الممارسات مثل: الحديث عن حجاب الموضة، لباس البحر الشرعي، الغناء الإسلامي[1].

أحدث الدعاة الجدد - عبر الفضائيات العربية ومواقع الإنترنت والأقراص المدمجة - تحوّلًا جديدًا لدى شرائح كبيرة من المجتمع حيث استوعبوا تعقيدات الحياة المعاصرة وحاولوا تقديم إجابات على شكل برامج عملية ومشاريع مدنية عبر ما يعرف بالخطاب الديني الواقعي في محاولة منهم للتوفيق بين مقتضيات الشريعة (الأصول) ومتطلبات الواقع دون أن يحدث ذلك خللًا على مستوى العقيدة في حياة الناس. لقد أصبح هناك إعادة صياغة إيمانية لالتزام ضروري بالمبادئ الأساسية للدين إما من خلال تبسيط وتسهيل ما ورد في الكتب المنزلة (تأويل الآيات)، وإما من خلال تناغم الروحانية مع الفردانية عبر ما يعرف بثقافة الذات لحياة الشباب وفق أساليب دعوية جديدة[2].

مثل هذا الاهتمام بالذات للعيش في مجتمع معاصر فرضته أخلاقيات الاستهلاك ويتجه نحو شباب يعاني الأزمات والتشوش الذهني، فهو من جهة يرغب التمتع بمعطيات العصرنة وفي نفس الوقت لا يرغب الانزياح عن تعاليم دينه، مما ولّد ذلك ظهور رموز دينية تعيد صياغة التعاليم وفق أطر عصرية بأهداف شمولية تتناغم مع التنوع الاجتماعي والثقافي وسبل الاندماج في المجتمعات الغربية عبر طرح مسلكيات جديدة مختلفة عن توجه المتشددين.

يبدو من تحليل السلوك الديني في المجتمع العربي أن الدين كثيرًا ما

(1) ظاهرة المغني البريطاني سامي يوسف/ ومغني الراب الجزائري لطفي دوبل كونان والأفلام والفضائيات الإسلامية والمصارف الإسلامية، الفنادق الإسلامية إلخ .....

(2) مثلما هو الحال مع الدعاة المسلمين في مواضيع تحقيق الذات: كيف تتصرف.../ للحفاظ على هدوئك/ للنجاح في الحياة وتجنب الإجهاد...مترافقًا ذلك مع مواقع إنترنت متخصصة ومجلات وكتب بعناوين جديدة منها: الإجهاد العصري وشفاؤه من خلال القرآن / علم النفس القرآني / علاج عصري للمؤمنين: قضايا معاصرة / الصحة واللياقة البدنية في الإسلام.

يتحول من طاقة روحية ثورية في مرحلة تكونه إلى نظم ومؤسسات وطبقات، كما أنه قد يُستخدم من قبل الجماعات والأنظمة بهدف تكريس مصالح وتثبيت شرعية وهيمنة قوى، لما له من اتصال ببنى اجتماعية ومؤسسات سياسية وهكذا يأخذ الدين في تلبية حاجات ظاهرة وخفية، وقد تكون توظيفاته إيجابية أو سلبية بحسب التأويلات المثارة في عالمه، حتى نتج عن ذلك فجوات عميقة بين القول والفعل، الظاهر والباطن والعام والخاص وتنوعت الفتاوى وتناقضت الاجتهادات على صعيد السلوك المعاش إلى أن عمّ التشكك والإحساس بالاغتراب وباتت حالات التفكك الاجتماعي ظاهرة بذريعة الدين وفتواه.

نخلص إلى القول بأن الدين عبر التاريخ كمفهوم ومعتقد كان مصطلحًا مثيرًا للجدل، يعرّف عادة بأنه الاعتقاد المرتبط بما فوق الطبيعة ،المقدس والإلٰهي، كما يرتبط بالأخلاق، الممارسات والمؤسسات المرتبطة بذلك الاعتقاد. وبالمفهوم الواسع، عرّفه البعض على أنه المجموع العام للإجابات التي تفسر علاقة البشر بالكون. حتى بات تعريف الدين غير واضح وثابت، إذ نجد من يحاول تعريف الدين: من منطلق إيماني، روحاني، يقيني، أو من منطلق إلحادي، أو من منطلق عقلاني يحاول دراسة الدين كظاهرة اجتماعية أو نفسية أو فلسفية.

- علماء الاجتماع وعلماء الإنسان ينظرون إلى الدين على أنه مجموعة مجردة من القيم والمثل أو الخبرات التي تتطور ضمن المنظومة الثقافية للجماعة البشرية. فالدين البدائي كان من الصعب تمييزه بنظرهم عن العادات الاجتماعية الثقافية التي تستقر في المجتمع لتشكل البعد الروحي له.

- من وجهة نظر علماء الدين، الدين لا يمكن اختصاره بمظاهره الاجتماعية والثقافية الجماعية فالدين بالنسبة لهم هو الوعي والإدراك للمقدس، وهو إحساس بأن الوجود والعالم تم إيجاده بشكل غير طبيعي عن طريق ذات فوق الطبيعية تدعى الإلٰه أو الخالق أو الرب.

- علماء النفس والإنتربولوجيا يعتبرون هذا المقدس هو نتيجة للخوف والإحساس بعدم القدرة على السيطرة على المصير والحياة، والإحساس بعدم الأمان هو ما يولد الشعور بالحاجة لوجود خالق.

يمكن إجمال مميزات المجمل الاعتقادي كافة بعدة نقاط:

1 ـ الإيمان بوجود إله فوق ـ طبيعي هو الخالق للكون والعالم والمتحكم بهما وبالبشر وكافة المخلوقات.

2 ـ التميز بين عالم الأرواح وعالم المادة.

3 ـ وجود طقوس عبادية يقصد بها تبجيل المقدس من ذات إلهية وغيرها من الأشياء التي تتصف بالقدسية.

4 ـ قانون أخلاقي moral code، أو شريعة تشمل الأخلاق والأحكام التي يجب اتباعها من قبل الناس ويعتقد المؤمنون أنها آتية من الله الخالق لتنظيم شؤون العباد.

5 ـ الصلاة وهي الشكل الأساسي للاتصال بالخالق وإظهار التبجيل والخضوع.

6 ـ رؤية كونية world view: تشرح كيفية خلق العالم وتركيب السماوات والأرض وآلية الثواب والعقاب، أي كيف ينظم الله شؤون العالم.

7 ـ شريعة أو مبادىء شرعية لتنظيم حياة المؤمن وفقًا للرؤية الكونية التي يقدمها الدين.

8 ـ هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية وهو مجموعة من التورعات التي تقف أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا.

9 ـ الإيمان والشعور بالورع تجاه قدرة الماورائي، والاعتراف بها بأنها القدرة الخالقة والمتحكمة في هذا الكون.

الموضوع الثالث:
الهجرة والنزوح

«إننا اليوم في عصر الهجرة»، هكذا يقول علماء الاجتماع، مع أن ظاهرة الهجرة ليست جديدة إلّا أنه ومع النمو المتزايد لها في الآونة الأخيرة وتأثيراتها الجمة في كثير من القضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، بدت محط اهتمام للدراسة والبحث، سيما وأن التقديرات الرقمية لأعداد المهاجرين في أوائل التسعينات حول العالم بلغت نحو ثمانين مليون شخص، فما هذه الظاهرة؟.

أولًا: تعريفات في ظاهرة الهجرة:

الهجرة ـ بتعريفها المبسط ـ هي انتقال جماعات أو أفراد من دولة إلى دولة أخرى بغية العمل والاستقرار، وقد يتحكم في عملية الانتقال هذه عوامل عديدة منها ما يعرف بعوامل الطرد من المحيط الأولي الذي يعيش فيه الإنسان، ومنها ما يسمى بعوامل الجذب التي تشده إلى محيط آخر بديل قرر الانتقال إليه..

وقد تحدث الهجرة قسرًا (إجبارية) أو طوعًا (اختيارية)، في حالات القسر يضطر الناس ترك مواطنهم بسبب الفقر المدقع في بيئتهم أو لسبب الضغوط السياسية والعسكرية، أما في الحالات الطوعية فبناءً على رغبة في الترحال والانتقال من أجل البحث عن حياة أفضل.

هناك عدة أسباب تهيأ لظاهرة الهجرة وسوف نختصرها بالأسباب التالية:

1 ـ **أسباب اقتصادية:** نتيجة الفقر الذي يحل بمنطقة ما، فيندفع

المقيمون فيها إلى الانتقال منها خوفًا من مجاعة، كما حدث لقسم كبير من الإيرلنديين في منتصف القرن التاسع عشر عندما أصيب محصول البطاطا التي تعتمد عليه الدولة اعتمادًا كليًا فأدّى إلى كارثة معيشية مما دفع بحوالي 500 ألف شخص للهجرة نحو بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية. وكذلك الحال بالنسبة للمهاجرين من آسيا وأفريقيا حيث عامل الفقر كان سببًا في هجرة الأفارقة بأعداد هائلة نحو السلفادور والبرازيل بسبب يأسهم من تحسن حال معاشهم في دولهم.

2 ـ **أسباب سياسية**: وتتمثل في الاضطهاد السياسي الذي يحدث في العديد من الدول التي تشهد صراعات عرقية أو نتيجة لتغير أنظمة الحكم مما يصعب على بعضهم البقاء في بلدانهم بسبب نهج سياسي متبع من سلطة، فيضطر الكثيرون لمغادرة بلدانهم خوفًا من الاضطهاد والتصفيات العرقية أو التوترات الدينية. ومثال على ذلك ما حدث بين الهند والباكستان عندما استقلّتا عام 1947 حيث تبادلتا ما يزيد 17 مليون نسمة، إذ انتقل قسم من الهندوسيين من باكستان إلى الهند، كما انتقل قسم من المسلمين من الهند إلى الباكستان، وكذلك الحال بين تركيا واليونان حيث تبادل سكاني عام 1923 فهاجر نحو مليون نسمة من اليونانيين كانوا في تركيا إلى اليونان وأعيد أيضًا حوالي 300 ألف تركي إلى تركيا.

3 ـ **أسباب طبيعية**: في بعض المناطق تحدث كوارث طبيعية من فيضانات وبراكين أو زلازل وأعاصير مدمرة فيضطر عندئذ العديد من السكان الانتقال إلى الإقامة في مناطق أو دول أخرى أكثر أمنًا واستقرارًا.

ويرافق الهجرة غالبًا ظاهرة النزوح الذي يعرّف على أنه انتقال جماعي أو فردي داخلي/ محلي، في حالات معينة يكون هذا الانتقال منظّمًا حين تقوم شركات كبيرة مثلًا باستيراد عمال من منطقة كثيفة للعمل في تعمير مناطق أخرى داخل البلاد (في كندا ينزح من مدن ولاية ألبرتا عشرات الآلاف من الشبان موسميًا نحو مناطق شمالية للعمل في حقول استخراج الزيت الخام) وإما يكون عشوائيًا خاصة بين المدينة والريف كما هو الحال في المحافظات

الجنوبية والشمالية القريبة من مدينة القاهرة، وكذلك بالنسبة لمدينة بيروت التي تجذب الكثير من سكان قرى الجنوب وجبل لبنان بينما في طرابلس اللبنانية نجد أن النزوح إليها يأتي من قرى محافظة الشمال (الضنية/ عكار). ويلعب في حركة النزوح التطور الاقتصادي الذي يتركّز في المدن، فيندفع أبناء المناطق النائية للنزول نحوها بغية العمل والبحث عن فرص الحياة الأفضل، على سبيل المثال يتركز في مدينة بيروت 68% من مجالات العمل و100% من الإدارات الحكومية و90% من المؤسسات المصرفية و80% من مراكز الخدمات الثقافية، مما أدى ذلك إلى:

1 ـ **تزايد سكاني يومي** (كحال الموظفين القادمين نهارًا ثم يعودون مساء).

2 ـ **تزايد مرحلي/ موسمي** (خلال موسم الشتاء يكثر نزلاء المدن عن موسم الصيف كحال الطلاب الجامعيين إلى العاصمة من القرى النائية أو كما هو الحال مع رعاة القوقاز وأذربيجان وأرمينيا وقاطني سفوح جبال الألب الذين يتركون الجبال نحو الساحل والأودية الدافئة من أجل تأمين المراعي وحفظها من برودة الصقيع).

3 ـ **تزايد إقامي دائم**، كحال القادمين من مناطق بعيدة تفتقر بيئاتهم لسبل العمل والعيش فيفضلون البقاء في المدينة لرغدها، كحال أبناء البقاع والجنوب والشمال في لبنان الذين يفدون إلى مدينة بيروت، حتى أصبحت تضم أكثر من 60% من سكان لبنان بينما بيروت لوحدها تحتوي حوالي 38% من عدد السكان الإجمالي.

يشير ذلك إلى أن الانتقال إلى المدينة كنزوح أو إلى الخارج كهجرة، يعود بمجملها **لعوامل دفع** منها:

- ✓ تخلف المجتمع الريفي مع حصول خلل في العلاقة بالأرض وفي القيم.
- ✓ عدم توفر فرص العمل المستمرة والتسهيلات الحديثة من مدارس ومستشفيات.

✓ طبيعة العمل الموسمي في الريف.

ولعوامل جذب و تشمل:

☆ توفر فرص العمل في إدارات الدولة والشركات والمؤسسات الصناعية والتجارية.

☆ ازدهار المدن بالمبتكرات الحديثة وفرص الترفيه.

☆ سهولة المواصلات والتنقل.

☆ توفر التسهيلات الاجتماعية من جامعات وأندية ومراكز تنشيط وتثقيف.

☆ شعور الجيل الجديد بأن المدينة هي الملاذ الأرحب لرفع مستوى إنجازاتهم في العمل.

إذن ثمة عوامل مؤثرة تسهم في تشكيل أنماط الهجرة وتميل كثير من النظريات إلى تحديد هذه العوامل بظروف البلد المهاجر منه، التي ترغم جانبًا من السكان على الارتحال مثل الحروب والمجاعات والقمع السياسي وضغوط التكاثر السكاني هذا من جهة، وإلى ظروف البلد المهاجر إليه من جهة أخرى مثل ازدهار سوق العمل وإغراءات مستوى المعيشة والاستقرار الأمني والضمان الصحي والأمان الاجتماعي واتساع أفق الحياة في مجالات التعلم والتقدم ومواكبة التطور.

في دراسة اجتماعية لبعض الأحياء الشعبية الداخلية في مدينة الرياض (السعودية) حول الفقر وارتباطه بالهجرة الداخلية (2002)، حاولت فيها الباحثة (عزيزة عبد الله النعيم) رصد دوافع الهجرة الداخلية إلى مدينة الرياض ودوافع التمركز لبعض المهاجرين في الأحياء الشعبية، فتبين لها ـ وبعدما عرّفت الهجرة الداخلية على أنها المغادرة التي تتم من قبل أشخاص سعوديين أو أسر سعودية وصلت من خارج مدينة الرياض إلى أحيائها الشعبية الداخلية (العود/ الصالحية / المنفوحة) ـ بأن هذه الهجرة «شبابية» فقد بلغ متوسط عمر المهاجر عند قدومه إلى مدينة الرياض 28 عامًا، أما من حيث إذا كانت الهجرة بمحض الإرادة فقد هاجر 79% باختيارهم والباقون هاجروا

مع الأهل أو مع الزوج. وتشكل العوامل الاقتصادية أهم عوامل الطرد من الموطن الأصلي حيث شكلّت بمجملها ما نسبتهُ 89% وتتمثل في عدد من الأسباب:

☆ 82% بسبب عدم توافر فرص عمل.

☆ 49% لعدم كفاية الخدمات العامة.

☆ 37% لمحدودية وسائل العيش.

وقد توصلت الباحثة إلى تعميمات نظرية بناءً على نتائج المعطيات تتعلق بأسباب هجرة الفقراء وتتمثل في عوامل طرد كالبطالة في القرى والبوادي، عدم توفر المساعدات بأنواعها خاصة لمن هم في سن العمل أو لأرباب الأسر، قسوة المعيشة في منطقة جازان (وهي المنطقة الأكثر قدومًا منها لسبب ارتفاع درجات الحرارة، صعوبة المواصلات، عدم تطور البيئة). وعوامل جذب كتوفر الأعمال في مدينة الرياض، تحسن الدخل، وجود الجمعيات الخيرية التي تقوم بإعاشة الفقراء، الحصول على مساعدات من أهل الخير لجهة دفع نصف إيجار السكن أو فاتورة الكهرباء، وجود مساكن قديمة ورخيصة أو موقوفة. فضلًا عن العامل الاجتماعي المتمثل في مؤشر القرابة الذي يساعد في حركة الانتقال لجهة تبديد الشعور بالاغتراب، مساعدة الفرد على اتخاذ قرار الهجرة عبر تأمين عمل له قبل قدومه، تأمين مسكن وتسهيلات حينما يقدم إلى الرياض سيما إذا كان رب أسرة.

وهكذا تتضح صحة الفروض عن علاقة العوامل الاقتصادية بعوامل الهجرة ومسبباتها، إذ كلما ارتفع مؤشر الحياة ـ المعيشة الصعبة في منطقة ما تصبح كبيئة طاردة، كلما أدى ذلك إلى زيادة مؤشر الهجرة الداخلية أو الهجرة الخارجية على حد سواء.

ثانيًا: أنواع الهجرة:

درج الباحثون في الديموغرافيا على تحديد أنواع الهجرة: بالدائمة والموسمية والمؤقتة، وذلك تبعًا لرغبة المهاجرين في المدى الزمني لحالة انتقالهم وإقامتهم، فقد تكون الإقامة لفترة زمنية طويلة مع تقريرهم المسبق لذلك، كالمهاجرون الأوائل من لبنان إلى البرازيل وكندا وأستراليا. ومهاجرو البلدان الفقيرة والمضطهدة ككوبا والمكسيك وبلدان شمال وشرق أفريقيا نحو الولايات المتحدة الأمريكية. أو قد يكون هناك انتقال مرحلي أو مؤقت لعدد من السنين يعود بعدها المهاجر إلى الوطن الأم مستقرًا (حال الشباب العربي الذي يغترب بهدف الدراسة والعمل وتحصيل ثروة تمكنه من العودة إلى بلاده لقضاء بقية أيامه فيها/ كمهاجرو فلسطين وسوريا والأردن ومصر نحو الخليج العربي) وإما أن يحدث نوعًا من التنقل الموسمي حيث يمكث بعضهم شهور من السنة في مكان ليعود بعدها إلى موطنه، وهذا ما يعرف بالموسمية ويتحدد ذلك بناء على ظروف العمل في بلد المهجر (حيث تكون ناشطة في فترات زمنية دون أخرى) أو بناء على شروط الإقامة وتأشيرات الدخول[1].

وقد درج الباحثون في السوسيولوجيا على تمييز أربعة نماذج لوصف التحركات السكانية الدائرة اليوم في العالم حيث هناك:

1 ـ **النموذج التقليدي للهجرة** ويصدق ذلك على دول مثل كندا والولايات المتحدة وأستراليا والبرازيل التي شهدت في بدايات القرن الماضي هجرات كثيفة ولما تزل تشجع على الهجرة حتى أصبحت هذه الدول تضم شعوبًا من المهاجرين إلى جانب سكانها الأصليين.

2 ـ **النموذج الاستعماري**، وتمثّلهُ دولًا مثل بريطانيا وفرنسا اللتين تميلان إلى إعطاء الأفضلية للمهاجرين القادمين من البلدان التي كانت خاضعة لسيطرتهما الاستعمارية، كما هو حال بالنسبة للمهاجرين اللبنانيين والجزائريين والمغاربة الذين كانوا تحت الانتداب الفرنسي، أما بالنسبة لبريطانيا فإن المهاجرين إليها فعلى الأغلب يكونوا من دول الكومنولث.

---

(1) بعض الدول المستقبلة للعمالة لا تسمح للوافدين بالإقامة إلا بموجب تصاريح عمل محددة زمنيًا بفترات إقامة لا تتعدى الستة أشهر.

3 ـ **نموذج العمال الضيوف**، وتعتمده دول أوروبية أخرى مثل ألمانيا وسويسرا وبلجيكا، بموجب هذا النموذج يجري قبول المهاجرين ودخولهم تلبية لاحتياجات سوق العمل بصورة أولية ولكنهم لا يتمتعون بحقوق المواطنة حتى لو أمضوا فترات طويلة من العمل والإقامة.

4 ـ **نموذج الهجرة غير المشروعة**، والذي يعني دخول أفراد بلدان معينة بطريقة غير نظامية (تهريب عبر الحدود/ دخول مزور/ أو دخول تحت ذريعة الدراسة أو السياحة) ويحدث ذلك نتيجة اشتراط دول معينة ضرورة توفّر معايير محددة للقادمين قد لا تنطبق على كثير من الراغبين بالسفر إلى هذا البلد أو ذاك، ومع تنامي البطالة وانكماش ظروف العمل في الوطن الأم يُقدم كثير من الشباب على المغامرة بالسفر والهجرة ولو بطرق غير شرعية (وغالبًا ما يتم ذلك بالسفر البحري عبر قوارب تهريب خاصة بين دول متجاورة المغرب والجزائر باتجاه إسبانيا أو فرنسا/ كوبا باتجاه الولايات المتحدة الأمريكية/ تركيا باتجاه اليونان) ويضطرون عندها للإقامة في مناطق نائية بطريقة غير قانونية بعيدًا عن أعين السلطات الرسمية كي لا تعيدهم إلى بلادهم. وينشط هذا النمط عبر سماسرة وعصابات دولية تقوم بتهريب اللاجئين وغيرهم من الراغبين عبر الحدود البرية أو المنافذ البحرية غير المراقبة لقاء مبالغ طائلة من الأموال.

1 ـ هجرة الأدمغة:

تمثل هجرة الكفاءات اقتطاعًا من القوى العاملة الهامة المتوفرة في البلدان النامية (بشكل عام) وتحتاج إليها حاجة ماسة في الجهد التصنيفي الذي تبذله، ولا يمكن التعويض عن هذا الاقتطاع بالتحويلات النقدية التي تأتي نتيجة هجرة القوى العاملة العادية التي تقتصر على المواصفات الفنية. وبقدر ما يكون مستوى كفاءة القوى العاملة العالية مرتفعًا بقدر ما تكون خسارتها كبيرة بالنسبة إلى اقتصاد البلد المهاجر منه، فبالإضافة إلى تكاليف توظيف قوة العمل والاحتفاظ بها، هناك التكاليف الباهظة للتعليم والتدريب التي تدفع في معظم الأحيان بالعملات الصعبة (كتدريب الكوادر في الخارج) وتتزايد فداحة التكاليف الناشئة عن هجرة الكفاءات عندما تحدث الهجرة بين فئات السكان

الأفضل تدريبًا وإعدادًا والذين استطاعوا بفضل أقدميتهم في العمل أن يكتسبوا خبرة مهنية واسعة ويحدث مع هذه الهجرة:

1 ـ تناقص قدرة هذه البلدان في إعداد المؤهلين اللازمين لعمليات التنمية محليًا، حيث إن هجرة الكوادر العلمية تحرم الجامعات والمعاهد والمؤسسات التعليمية والتأهيلية من الأطر الكفوءة التي يكون بإمكانها أن تعمل على إعداد المؤهلين محليًا.

2 ـ انخفاض المستويات التعليمية في البلد نتيجة تناقص عدد المؤهلين من أعضاء الهيئة التدريسية بالنسبة لعدد الطلاب في الجامعات والمعاهد والمؤسسات التعليمية مما يؤدي إلى تخرج دفعات ذات كفاءة محدودة.

3 ـ إرهاق الأجهزة الحالية المؤلفة من الفنيين والكوادر العلمية سواء في الجامعات أو المعاهد أو مؤسسات الدولة بازدياد الأعباء عليهم، مما يؤدي إلى ضعف الإنتاجية وانخفاض المردود وانتشار روح اللامبالاة، ونمو العقلية الروتينية وفتور الحماس للتجديد والتطور.

4 ـ عدم القدرة على إنشاء مراكز للأبحاث العلمية أو التوسع القائم فيها، مما يؤدي بالتالي إلى عرقلة التطور والتقدم الفكري والعلمي لهؤلاء الاختصاصيين، وتناقص وانخفاض قدراتهم الأساسية بحكم عدم إتاحة الفرصة لها للممارسة والتطبيق.

5 ـ تناقص القدرة على الربط بين التطورات الثقافية والتعليمية في البلد وبين متطلبات خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

6 ـ اضطرار الدولة إلى استيراد الخبرات العلمية الأجنبية من الخارج لتلافي النقص الحاصل من جراء الهجرة وبالتالي الوقوع في دائرة التبعية.

وفي هذا السياق تشير تقارير أصدرتها كل من الجامعة العربية ومؤسسة العمل العربية والأمم المتحدة (عبر تقارير التنمية الإنسانية العربية)، إلى وقائع وأرقام حول هجرة العقول العربية إلى الخارج. فالمجتمعات العربية باتت بيئة طاردة للكفاءات العلمية إذ تشكل هجرة الكفاءات فيها 31 %، كما أن هناك

أكثر من مليون خبير واختصاصي عربي من حملة الشهادات العليا أو الفنيين المهرة مهاجرون ويعملون في الدول المتقدمة، بحيث تضم أميركا وأوروبا 450 ألف عربي من حملة الشهادات العليا وفق تقرير مؤسسة العمل العربية 2004. وتؤكد هذه التقارير أن 4.5 في المئة فقط من الطلاب العرب الذين يدرسون في الخارج يعودون إلى بلادهم فيما يستقر الآخرون في الخارج. ومن الأرقام الدالة أيضًا أن 34% من الأطباء الأكفاء في بريطانيا ينتمون إلى الجاليات العربية، وأن مصر وحدها قدمت في السنوات الأخيرة 60% من العلماء العرب والمهندسين إلى الولايات المتحدة، فيما كانت مساهمة كل من العراق ولبنان 15%. وشهد العراق ما بين 1991-1998 هجرة 7350 عالمًا تركوا بلادهم بسبب الأحوال السياسية والأمنية. وتشير هذه التقارير إلى عمل قسم واسع من العقول العربية في اختصاصات حساسة في بلاد الغرب: مثل الجراحات الدقيقة، الطب النووي، الهندسة الإلكترونية والميكرو إلكترونية، والهندسة النووية وعلوم الليزر، وعلوم الفضاء وغيرها من الاختصاصات العالية التقنية.

تتعدد الأسباب التي تدفع الأدمغة العربية إلى الهجرة، منها ما يعود لأسباب موضوعية تتعلق بالثورة التكنولوجية والتقدم العلمي الذي لا يزال الغرب حقله الفعلي. ومنها ما يعود لعدم توافر فرص العمل اللازمة للاختصاص المتحصّل. وكثيرة هي الدول النامية التي لا تجد نفسها معنية بالإفادة من الاختصاصات العلمية وتأمين مجالات عمل لأصحابها، فيجد الخريجون أنفسهم ضحايا البطالة مما يضطرهم إلى تأمين لقمة عيشهم في أعمال لا تتناسب ومستوى تحصيلهم العلمي. يتولّد عن هذا الوضع شعور واسع بالإحباط واليأس لدى هذه الكفاءات، ويصبح لقرار الهجرة مسوّغاته الذاتية والموضوعية. وتصيب كثيرون مرارة إهمال الدولة ومؤسساتها وكذلك القطاع الخاص في حد كبير لمؤهلاتهم العلمية خاصةً عندما يرون كيف تتم الاستعانة بخبراء أجانب لقضايا تتوافر فيها الكفاءات اللازمة محليًا.

يشكل الواقع السياسي المضطرب والاقتصادي المتأزم عنصران مهمان من عناصر هجرة الأدمغة إلى الخارج حيث تعاني غالبية البلدان العربية من

اضطرابات سياسية وحروب أهلية مما يساهم بنزيف أهل العلم والفكر المحتاج دومًا إلى استقرار كي يُحسن الإنتاج مما دفعه إلى ترك وطنه بحثًا عن مكان آمن يُحسن العطاء فيه.

نجم عن حالة الاضطراب خلال العقود الأخيرة موجات هائلة من نزوح الأدمغة بخاصة في بلدان مثل فلسطين والعراق والجزائر ولبنان، وهو نزيف سائر إلى تصاعد بالنظر إلى تواصل هذا الاضطراب. يضاف إلى ذلك واقع حرية الرأي والتعبير التي تتسم بتقييدات في بعض الأنظمة، وهي أمور ذات أهمية كبيرة يحتاج فيها الباحث إلى الحرية في البحث والتحقيق وتعيين المعطيات وإصدار النتائج. ولا يزال العالم العربي يتعاطى مع الأرقام بصفتها معطيات سياسية ذات حساسية على موقع السلطة، إلى جانب هذه العوامل يشكل التطور العلمي والتكنولوجي وثورة الاتصالات التي تشهدها البلدان المتقدمة عنصرًا جاذبًا لأصحاب الاختصاصات في التكنولوجيا العالية، حيث تقدم المجتمعات الغربية، بخاصة مراكز أبحاثها إغراءات مادية وحياتية لعلماء كثيرين برعوا في هذه المجالات، أو لأصحاب طموح وجدارة بتحصيل علمي متقدم في علوم يستحيل وجود مثيلها في بلده الأم. وهو ما يعني استحالة عودة هذه الكفاءات لاحقًا إلى موطنها بعد تخرجها إدراكًا منها صعوبة الإفادة مما حصلته من هذه العلوم.

يترتب على هجرة الأدمغة خسائر صافية تطاول المجتمعات النامية جملة وتفصيلًا. حيث يشير أحد تقارير منظمة العمل العربية إلى أن الدول العربية تتكبد خسائر سنوية لا تقل عن 200 بليون دولار بسبب هجرة العقول إلى الخارج. تقترن هذه الأرقام بخسائر صلبة نجمت عن تأهيل هذه العقول ودفع كلفة تعليمها داخل أوطانها، لكن الخسارة الكبرى تتبدى في الأثر السلبي الذي تتركه هذه الهجرة على مستوى التقدم والتطور المطلوب في المجتمعات العربية في الميادين العلمية والفكرية والتربوية والاقتصادية والاجتماعية، وهو أثر يطاول مشاريع التنمية والإصلاحات، مما يفاقم التخلف السائد أصلًا في هذه المجتمعات، وذلك بعدما بات مقياس التقدم متصلًا اتصالًا وثيقًا بمدى تقدم المعرفة وإنتاجها.

2 ـ هجرة السواعد.

يتزايد إقبال الشباب على الهجرة نحو بلدان أخرى بشكل مستمر ورغم معاناة الاغتراب، وما يشعر به المغترب من قلق وتوتر وحنين دائم إلى وطنه الأصلي، يتحمّل المعاناة إزاء الفوائد التي يجنيها باغترابه من مال/ جنسية / ضمانات صحية واجتماعية/ فرص حياة تعليمية لعائلته.. إلا وليست هذه الأسباب وحدها هي ما تدفع اليد العاملة إلى السفر والهجرة، فثمة أسباب أخرى منها:

- ✓ **عدم توفر فرص عمل مناسبة للشباب**: حيث أكثر المهاجرين من الذين يحملون شهادات جامعية وعدم توفر وظائف مناسبة واقتصارها على شريحة معينة (ذوي المحسوبيات) تدفع بالشباب إلى اللجوء إلى بلدان أخرى للبحث عن عمل (أي عمل).

- ✓ **تضخم الوضع الاقتصادي وارتفاع تكاليف المعيشة**، مع ارتفاع أسعار السوق بوتيرة مستمرة وبقاء مستوى الدخل ثابتًا، يجعل الشباب يتطلعون نحو السفر سنة أو أكثر حتى يتمكنوا من أن يجمعوا مبلغًا من المال يستطيعون معه أن يكونوا مستقبلًا لهم، فالعازب يريد أن يتزوج والمتزوج يريد أن يستقل بمنزل خاص به وبزوجته، في وقت يبدو فيه تحقيق مثل هذه التطلعات متعسرًا داخل بلده مما لا يمكنه العيش بصورة طبيعية.

- ✓ **الإغراء الذي تقدمه البلدان الأخرى**: فحالة الانفتاح التي تعيشها بعض البلدان العربية وجميع البلدان الغربية تجعل من الشباب يحلمون بالهجرة ليتمكنوا من العيش بصورة أكثر انفتاحًا وعولمة من البلد الذي يعيشون فيه، لهذا يهاجر اليوم أكثر الشباب طلبًا للرزق والمتعة في آن واحد.

- ✓ **تحقيق حلم الدراسة**، يفكر بعضهم بالهجرة لأجل التعليم والحصول على شهادة من بلد آخر، حيث لا يؤهلهم معدلهم من الحصول عليها داخل بلدهم، أو للحصول على شهادة عليا من الصعب الحصول عليها في موطنهم.

3 ـ الهجرة الوهمية:

أو ما تسمى بالهجرة الافتراضية انسجامًا مع التعابير المتداولة اليوم في عالم الفضاء السيبرنطيقي، حيث المجتمع الافتراضي، التواصل الافتراضي. انبثق هذا المفهوم بعد نشأة شبكة المعلومات العنكبوتية (الإنترنت) وأصبح كثير من الناس يتنقّلون يوميًا في حركة ذهاب وإياب مستمرة بين الفرد الواقعي والمجتمع الوهمي، حتى تأثر الشباب في الواقع المستجد وبرزت الفردانية كحالة مستجدة وكواقع سوسيولوجي، هم عاجزون عن تحقيق أحلامهم ومتطلباتهم وأعمالهم في محيطهم اليومي فيسعون عبرالإنترنت إلى «الإبحار في عوالم» غير مدركة الحدود ليصبح هناك انعزال على صعيد الواقع المعاش واندماج وتواصل على صعيد عالمي..حتى تشكل ما يعرف بالأقلية الافتراضية. من مختلف البلدان والأعراق والجنسيات والأهواء دون أن يدرك أحدهم الآخر، وإنما يجمعهم «موقع واحد» وكأنها أرض مشتركة، ارتحلوا بالهروب النفسي والاجتماعي والفكري نحو هذا الموقع ليكوّنوا سياق اجتماعي خاص..وهذا ما يحدث مع المسلمون المغتربون الذين أنشأوا ما يعرف بالأمة الوهمية عبر مواقع عديدة منها (muslim online, cybermuslim, ummah.net, www. ummah. org.uk, islam webring)[1].

لهذا فإن هذه المواقع ـ وكما يشير الباحث الفرنسي (أوليفيه روا) في كتابه «عولمة الإسلام»[2] ـ تتوجه إلى جمهور يشعر بأنه اقتلع من جذوره أو يسعى وراء هوية تتخطى القومية، وتشدد على هوية مسلمة تتخطى الأصول العرقية أو القومية.

الحصيلة من فعل التواصل بالفضاء المعلوماتي ليس نشوء عالم وهمي إنما قد يذهب الأمر بكثير من مستخدميها نحو إرساء عالم معياري قوامه إقامة

(1) مهمّة هذه المواقع أنهاتقدم النصائح وطرائق تطبيقها وفتاوٍ لحل المواقف الجديدة كافة، خاصة لتلك التي تنشأ من جراء العيش في بلد غير مسلم (هل يمكن الاحتفال بأعياد غير المسلمين/ هل يمكن الانخراط بجيش البلد المهاجر إليه/ ماذا عن إيداع الأموال في المصارف الأجنبية/ . .).

(2) ترجمة لارا معلوف، منشورات دار الساقي، بيروت 2003.

صداقات ومعارف، تلطيف قساوة العزلة، تأمين الاطلاع المباشر على غياهب المعرفة وسهولة الدخول إلى دول ومناطق وجامعات وأماكن عمل ومكتبات وشركات ومؤسسات رائدة بشكل قد يصعب معها في الواقع . .وهذا ما يجعلنا نطلق عليها بالهجرة الافتراضية.

ثالثا: آثار الهجرة:

تترك الهجرة نتائج عديدة وأبرزها تلك المتعلقة بالتغييرالديموغرافي لناحية التزايد السكاني لدى الدول المهاجر إليها وتناقصه في الدول المهاجر منها، إلا أن المشكلة الأهم لهذا العامل ليس تغير تركيبة السكان بقدر ما يترتب على التغير من مشكلات بنمط الحياة حيث ينتج عن الهجرة أنماط في المعيشة والتقاليد تختلف عن التي كان يعيشها في وطنه الأصلي قبل الهجرة، فكثيرًا ما نجد المهاجر نفسه يختلط في بيئة جديدة وبجماعات غريبة عنه فينتج في حال التوافق والتكيف تثاقف: ريفي ـ مدني، أو تقليدي ـ معاصر أو أميّ ومتعلّم، مما قد يؤدي إلى مشكلات عرقية ولغوية عديدة سواء بالنسبة للسكان المهاجرين أو الأصليين، ومن المعروف أن المجموعات البشرية المهاجرة تصادف دائمًا هذه المشاكل سواء من حيث اللغة أو الدين أو العرق أو السياسة، ولعل المشاكل العنصرية التي تقع بين السود والبيض، بين المسلمين والغربيين، مثالٌ جلي حيث تبرز التفرقة على أشدها وبوضوح في كل مناحي الحياة اليومية وخاصة في أماكن العمل والمدارس والمطاعم والمقاهي ودور اللهو.

إن للهجرة ولا شك آثار جمة سلبية كانت أم إيجابية لكلا المجتمعين المهاجر منه والمهاجر إليه على حد سواء، ومن أهم النتائج والآثار المترتبة على حركات الهجرة تبدّل أنماط المعيشة نتيجة التثاقف الحاصل مع مرور الأيام، فالريفي مثلًا يتحول إلى مدني وفق عمليات تكيف لواقع جديد، كما أن عامل النزوح قد يؤدي إلى تقهقر العمل الزراعي واتجاه الشباب نحو العمل الخدماتي، ومع تكدس الشباب في المدن ينتج عن ذلك بطالة مستعصية لينشأ مع الوقت أحياء بؤس في ضواحيها. . ومع حالة البطالة أو التدكس تبرز

مشاكل وتوترات بين القاطنين (وهذا ما يعرف بالجرائم الأثنية) أو تجاه أنظمة الدولة باعتبار أنها لا تلتفت إليهم (كما في حالات التمرد والعصيان عن الضرائب والمستحقات).. فيكون بنتيجته تلقّف جماعات سياسية ومنظمات عقائدية حالة القهر الذي يعاني منها هؤلاء فيعملون على استقطابهم كجماعات كادحة ومحرومة وتجنيدها في خدمة قضايا التغيير أو الضغط السياسي الذي تهدف إليه هذه المنظمات، وهكذا تتحول أحزمة البؤس من جماعات هامشية إلى طاقة ثورية فاعلة.

(وفي هذا السياق قامت أستاذة الأنتروبولوجيا (د.مها كيال) بمقاربة إنتروبولوجية لواقع الهجرة وآثارها في مدينة لبنانية في شمال لبنان، فوجدت أن هناك دينامية تغيير ثقافي يحدث بين المقيم والمغترب تتجلى ملامحه في الأطر التالية:[1]

1. **الهوية الأم وانخفاض أمرها**: إن ما يكتسبه المهاجر من مدخلات ثقافية عند تركه وطنه هي التي تتثبت عادة في ذهنه وتتحول إلى مرتكز أساسي في حياته.

2. **صراع ثقافات**، غالبًا ما يتواجه المهاجر بين ثقافة مستجدة (وغريبة) عليه إزاء عقائد متعمقة في تكوينه الشخصي فينتج عن ذلك صراع داخلي (ظاهرة GIRL - FRIEND).

3. **إثبات الوجود الهوياتي إزاء التمايز العنصري**، نتيجة الانتماء العقائدي المتنوع بين مجتمع المهاجر ومجتمع الهجرة تظهر مسألة التمييز الاجتماعي إلى العلن والممارسة عندما يضعه أرباب عمل بلاد الهجرة في أسفل السلم الاجتماعي والاقتصادي ـ وفي أعمال وضيعة لانعدام القدرات العلمية ـ فيولّد ذلك لدى الشباب المهاجر شعورًا بأن هناك تطرف عنصري فتكون ردة الفعل بتأكيد الذات وهويته إزاء المعاملة غير المنصفة.

4. **الخوف من الفردنة**، كثيرة هي الأسر التي ترغب العودة من أجل

(1) «جذور وهجرة، مقاربة أنتروبولوجية لواقع الهجرة» في مدينة المنية (شمال لبنان) (مقالة)، د. مها كيّال، مجلة إضافات، المجلة العربية لعلم الاجتماع، العدد الثاني، ربيع 2008، بيروت لبنان.

الأولاد خوفًا من فقدهم نتيجة تأثر هؤلاء بنمط الاستقلالية الفردية التي يحياها أبناء جيلهم في الغرب.

5. **بروز ظاهرة التبادل الزواجي**، مع حرص المهاجرين على بناتهن من ثقافة المجتمع الغربي، أخذ بعضهم يرسلهن إلى الوطن عند بلوغهن سن الزواج لتمضية الصيف مع الأهل والهدف بالطبع هو رغبتهم في التعرف على شباب من الوطن الأم حتى أصبح هناك مفهوم جديد للزواج: عريس مقابل فيزا للهجرة.

6. **فائدة التحويلات المادية**، شكلت العملات الصعبة المحولة من المهاجر إلى المقيم رافعة اقتصادية لأسر كثيرة عبر استثمار ما يرسله المهاجرون لذويهم في الوطن من أجل تحسين أحوالهم، تأمين فرص عمل لأبناء الأسرة، أو تأمين زوجات وأزواج أو إعمار المنزل وتحسين تأثيثه.

* ظاهرة اللجوء السياسي.

يحتل موضوع اللجوء أهمية كبيرة ومتزايدة لاسيما في السنوات الأخيرة. والدوافع التي أملت إيلاء موضوع اللجوء الإقليمي واللاجئين هذه الأهمية هو تزايد حجمها وتفاقمها وانتشارها في قارات مختلفة من العالم، والأسباب التي تدفع إلى اللجوء عديدة منها: الحروب الأهلية والصراعات الداخلية وعدم الاستقرار السياسي والأمني في بعض البلدان ،وانتهاك حقوق الإنسان في العديد من دول العالم سواء كانت موجهة إلى جماعات عرقية أو أثنية أو دينية أو سياسية، أو كانت موجهة إلى كل المعارضين لنظام حكم معين أو للاتجاه السياسي السائد أو بسبب الخلافات العقائدية، ما يضطر العديد من الأفراد إلى الفرار و اللجوء إلى دول أخرى طلبًا «للحماية أو اتقاءً للاضطهاد أو التعسف» ومن الأسباب الأخرى التي تؤدي إلى اللجوء الإقليمي هي النزاعات المسلحة بين الدول المتجاورة أو التي تتعرض إلى غزو أو اعتداءات خارجية، كما إن العنف السياسي يلعب دورًا بارزًا في تصعيد حدة اللجوء الإقليمي. وبسبب هذه الظروف ظهرت جماعات كبيرة من اللاجئين من قارات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

رغم الصعوبة في تعريف من هو اللاجئ لغرض تحديد من له حق الاستفادة من اللجوء الإقليمي والتمتع بالضمانات التي يوفرها القانون الدولي لأمثال هؤلاء يمكن أن نورد تعريفًا «نسبيًا» عنه هو: (إن اللاجئ هو الشخص الذي ابتعد عن وطنه الذي ينتمي إليه خشية أو هربًا من الاضطهاد لأسباب تتعلق بالعرق أو الدين أو الجنسية أو الرأي السياسي أو الانتماء إلى فئة اجتماعية خاصة، ولا يريد أن يضع نفسه تحت حماية بلده الأصلي) ونصت (المادة 14) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان صراحةً على حق كل فرد في أن يلجأ إلى بلاد أخرى أو يحاول الالتجاء إليها هربًا من الاضطهاد ولا ينتفع من هذا الحق في المحاكمات المستندة إلى جرائم غير سياسية أو أعمال مخالفة لأغراض ومبادئ الأمم المتحدة.

اللجوء ما زال ينظر إليه من قبل العديد من دول العالم وخصوصًا دولة اللاجئ التي فر منها إلى دولة أخرى قبلته أو ساعدته على اللجوء على أنه عمل غير ودي، وتنظر إليه بشك وريبة ويفسر بعض الأحيان على أنه عمل عدائي كما أن منح حق اللجوء عمل سيادي بمعنى أن للدولة الحق في أن تمنح حق اللجوء على أراضيها لأشخاص فارين من بلاد أخرى عملًا بما ورد في المادة 14 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تشير بأن لكل مضطهد الحق في اللجوء إلى بلدان أخرى فرارًا أو هربًا من الاضطهاد. والاضطهاد هنا واسع ويمكن أن يكون اللاجئ انتهك أو خرق كل أو بعض حقوقه وحرياته لأسباب تتعلق بالعرق أو الدين أو الجنسية أو الرأي السياسي أو الانتماء إلى جماعة معينة، ويؤكد الإعلان بصريح العبارة على أن للمناضلين المكافحين ضد الاستعمار حق التمتع باللجوء الإقليمي وقد أوجبت المادة الثانية من الإعلان المجتمع الدولي أن يهتم بحالة اللاجئين الذين ينطبق عليهم هذا الوصف مع عدم المساس بسيادة الدول. ولا يجوز أن يخضع اللاجئ لتدابير منها إجراءات منع اجتياز الحدود وإذا كان قد دخل أراضي دولة ما بالفعل فلا يجوز ترحيله أو إرغامه على العودة إلى الدولة التي قد يكون فيها عرضة لأي نوع من أنواع الاضطهاد.

الموضوع الرابع:
ما بعد الحداثة (المستقبليات)

من خلال دراسة الحداثة كظاهرة تاريخية تبرز دلالاتها كرمز فاصل بين مجتمع متأثر بالمبتكرات الجديدة من العلم والصناعة والأفكار ومجتمع آخر لمّا يتح له فرص الأخذ لها، وبذلك تصبح المجتمعات تصنف بناءً على مدى أخذها للأفكار المستحدثة ومدى تخلفها عنها، حيث تبين للباحثين أن الحداثة حيث الاتباع التام لأساليب الحياة التقنية والتي يمكن أن يكون في أكثر من مجال:

1) **التحديث الصناعي**: ويبرز من خلال زيادة تقسيم العمل، وفرة الإنتاج وتنظيم المجتمع لكفاءاته العلمية، متابعة التطور الصناعي وآخر المبتكرات التقنية.

2) **التحديث الثقافي**: من خلال الدخول في ميادين معرفية جديدة، تخصصات جامعية مستحدثة، وأنماط حياة عصرية في أساليب العيش.

3) **التحديث المؤسسي**: من خلال تعديل أنظمة عمل المؤسسات، انحسار البيروقراطية، الاتجاهات الديناميكية في عالم الأعمال، تبدّل في نمط العمل الإداري للشركات ومؤسسات الخدمة.

4) **التحديث السياسي**: مع غياب الأيديولوجيا الموحدة، غياب القيادة المركزية، تغلّب التعددية وبروز التجمعات الشعبية على حساب الحزب السياسي التقليدي.

وفق هذه المستويات من التحديث تُفهم الحداثة بأنها العملية التي تنتقل بواسطتها المجتمعات (الجماعات/ الأفراد) من نمط حياتي ثابت إلى آخر

مغاير عنه، ناتج عن تطور بنى الإنتاج وانتشار التكنولوجيا والقدرة على الابتكار والتعلّم لفهم أسرار الطبيعة وتجييرها لخدمة البشرية. التحديث نمط شامل من المتغيرات في وقت واحد وعلى مستويات عدة، هو شكل من أشكال المحاكاة والمنافسة ونقل لنماذج ومنتوجات التكنولوجيا المختلفة من الأقطار الغربية إلى الأقطار الأقل تقدمًا. وترى بعض النظريات بأن الحداثة تشير إلى قدرة الإنسان على التعلم والتعليم وزيادة قدرة الجماعة على استخدام المعلوماتية. لهذا تعود كل أشكال التحديث إلى وجود منظمات متخصصة وإلى وجود أشخاص مميزين معرفيًا يعرفون بـ«مفاتيح الأدوار»، في التحديث الصناعي هناك العمال المجددين والمخترعين، في التحديث الثقافي الأدوار تكون للمهاجرين والطلاب والأعضاء المتحررين من القبلية، وفي التحديث المؤثر تكون للساسة والمفكرين. في عالم التحديث يتميز أصحابه بمستوى عالٍ من التمايز وبخصائص معينة مثل:

- ✓ شعور ملحوظ بالكفاءة الشخصية.
- ✓ مستقلون في علاقاتهم بالمصادر التقليدية للتأثير.
- ✓ مستعدون لاستقبال الأفكار والخبرات الجديدة.
- ✓ يكونوا ذو عقلية منفتحة ومرنة.
- ✓ يشاركون في الشؤون العامة وينظمون التنظيمات المحلية والقومية.

قد يُخيّل لبعض الناس أن الحداثة هي حضارة العمران وبناء المصانع وتنظيم الأطر المؤسسية، إلا أن هذا التقدم قد يكون نواح من الحضارة لأن الحداثة الحقة هي الحضارة المرتكزة على جوهر القيم الإنسانية والأخلاق والفن التي بمقدار ما يحافظ عليها المجتمع يتقدم ويزدهر، إذ لا معنى للحضارة دون فضائل أخلاقية ولا جدوى للحداثة إن لم ترتكز على تراث راسخ من الثقافة الأصيلة. وهذا ما يُعرف بالتحديات المرتقبة التي تواجه المجتمعات التقليدية في فضاءات التقدم والتواصل مع المجتمعات الأكثر تقدّمًا أو المختلفة عنها ثقافة وحضارة. هذه التحديات باتت اليوم مثار جدل لدى كثير من الباحثين (ماركس/ غدنز/ ديفيد هارفي/ أرنستو لاكلو) من خلال

تناولهم لموضوع العولمة والهوية وما بعد الحداثة والواقع المستقبلي. باعتبار الحداثة هي تثوير دائم للإنتاج وإزعاج متواصل لجميع العلاقات الاجتماعية وعدم استقرار مستديم لما هو ثابت، مما يعني أن الحداثة لا تحدد فقط بصفتها تجربة العيش مع التغيير السريع والواسع وإنما هي أيضًا شكل من الحياة يقوم على درجة عالية من التفكر. يتخذ هويات جديدة وإنتاج ذوات أخرى.

1 ـ العولمة:

يمكن وصف العولمة بأنها عملية يتم من خلالها تعزيز الترابط بين شعوب العالم في إطار مجتمع واحد لكي تتضافر جهودهم معًا نحو الأفضل. تمثل هذه العملية مجموع القوى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية. إلا أنه غالبًا ما يستخدم مصطلح «العولمة» للإشارة إلى **العولمة الاقتصادية**؛ أي تكامل الاقتصاديات القومية وتحويله إلى اقتصاد عالمي من خلال مجالات مثل التجارة والاستثمارات الأجنبية المباشرة وتدفق رؤوس الأموال وهجرة الأفراد وانتشار استخدام الوسائل التكنولوجية. حيث من مزاياها كظاهرة أن تشتمل في حد ذاتها على مجموعة من العمليات الصغيرة التي تهدف إلى نزع سيطرة الدول على كل ما أسسَّ فيها ليكون قوميًا، سواء على مستوى السياسات أو رأس المال أو الأهداف السياسية أو المناطق المدنية والحدود الزمنية المسموح بها أو سواء عبر تقليل وإزالة الحدود بين الدول بهدف تسهيل تدفق السلع ورؤوس الأموال والخدمات والعمالة وانتقالها بين الدول. ويعرّف «توم جي بالمر» (Tom G. Palmer) من معهد كيتو Cato Institute (بواشنطن)، العولمة بأنها عبارة عن «تقليل أو إلغاء القيود المفروضة من قبل الدولة على كل عمليات التبادل التي تتم عبر الحدود وازدياد ظهور النظم العالمية المتكاملة والمتطورة للإنتاج والتبادل نتيجة لذلك».

تعتبر العولمة بمثابة عملية تمتد عبر العديد من القرون وتتأثر بنمو السكان ومعدلات ازدهار الحضارة والتي زادت بشكل كبير على مدار الخمسين سنة الماضية. تمثلت أولى أشكال العولمة في أثناء وجود

الإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية فارس القديمة. كذلك، يعد العصر الذهبي الإسلامي مثالًا واضحًا على انتشار العولمة؛ وخاصةً عندما أسس المستكشفون والتجار المسلمون أول نظام اقتصادي عالمي في العالم القديم، مما ترتب عليه انتشار العولمة في الكثير من المجالات مثل المحاصيل الزراعية والتجارة والعلم والمعرفة وقد بدأت العولمة في الانتشار بشكل أكبر بتوسع التجارة الأوروبية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، عندما استطاعت كل من الإمبراطورية الإسبانية والبرتغالية استعمار أمريكا بعد استعمار فرنسا وإنجلترا لها. وقد استطاعت بريطانيا فرض أفكارها وثقافتها الخاصة بها على الدول الأخرى في أثناء تلك الفترة. حتى أصبح يُطلق على القرن التاسع عشر «العصر الأول للعولمة». ومع حلول القرن الحادي والعشرين، شهدت الكثير من الدول الصناعية في العالم فترة كساد وركود كبيرة. وقد صرح بعض المحللين أن العالم سيشهد فترة لن يتم فيها السعي وراء تحقيق العولمة بعد المرور بسنوات من ازدياد التكامل الاقتصادي بين مختلف الدول.

تعد العولمة منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية نتيجة بارزة لتخطيط القادة السياسيين الهادف إلى إزالة الحدود التي تعرقل التجارة بين الدول سعيًا وراء زيادة معدلات الرخاء الاقتصادي واعتماد الدول على بعضها بعضًا، لقد تم تقليل الحواجز التي تعترض التجارة الدولية بشكل كبير منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية من خلال العديد من الاتفاقيات الدولية مثل اتفاقية الجات. وقد تم تنفيذ مبادرات خاصة كنتيجة للتوصل إلى اتفاقية الجات؛ وقد تضمنت هذه المبادرات ما يلي:

* تعزيز التجارة الحرة باتباع الآتي:

- ○ إلغاء التعريفات الجمركية وإقامة مناطق للتجارة الحرة بتعريفة بسيطة أو دون تعريفة على الإطلاق.
- ○ تقليل تكاليف النقل وخاصة الناتجة عن تطور عمليات نقل البضائع بحاويات الشحن البحري.
- ○ تخفيف أو إلغاء الضوابط والقيود المفروضة على رؤوس الأموال.

- تنسيق القوانين الخاصة بالملكية الفكرية عبر معظم الدول مع فرض المزيد من الضوابط عليها.
- الاعتراف دوليًا بتطبيق الضوابط المفروضة على الملكية الفكرية بشكل يتخطى الحدود والسلطات القومية (على سبيل المثال، يتم الاعتراف في الولايات المتحدة الأمريكية بصلاحية براءات الاختراع التي تمنحها الصين).

إذا ما نظرنا إلى العولمة الاقتصادية على وجه الخصوص، فإنه سيتضح إمكانية تحديد مستويات لها بعدة طرق مختلفة. وهذه الطرق تتمركز حول أربعة تدفقات اقتصادية رئيسة تتسم بها العولمة منها: **السلع والخدمات**: (أي الصادرات والواردات التي تمثل نسبة من الدخل القومي بالنسبة لكل فرد من السكان)، **العمالة/الأفراد**: (عبر معدلات تدفق الهجرة الداخلية والخارجية وحسابها من جملة السكان)، **رؤوس الأموال**: (الاستثمارات المباشرة الداخلية والخارجية كنسبة من الدخل القومي بالنسبة لكل نسمة)، **التكنولوجيا**: لجوانب البحوث والتطوير الدولية واستخدام اختراعات تكنولوجية معينة مثل التليفون والسيارة والشبكات عالية السرعات).

أما عن **العولمة الثقافية**، فتتمثل في إمكانية وصول الفرد بشكل أفضل لشتى صور التنوع الثقافي. واستيعاب كل ما هو جديد من الثقافات بشكل عام. ذلك إن العولمة قد عملت على الربط بين الثقافات المختلفة وقامت بتحويلها إلى شيء مختلف وفريد من نوعه. كما تم التصريح عنه في إحدى مقالات مجلة National Geographic تحت عنوان «العولمة» بالقول: «عندما تستقبل الثقافات مختلف التأثيرات الخارجية، فإنها تستوعب بعضها وترفض البعض الآخر منها؛ ثم تعمل بعدها فوريًا على تحويل ما تم استيعابه على الجانب الآخر. ومع امتزاج الثقافات، يُصبح استخدام لغة دولة أخرى في أحاديث الأفراد أمرًا عاديًا».

فالثقافة تعبر عما يتناوله الأفراد من طعام[1] وما يرتدونه من ملبس، كما

(1) تشتهر الولايات المتحدة الأمريكية بالبرجر والبطاطس المحمرة. قديمًا، كان الطعام المقدم في مطاعم ماكدونالدز هو الطعام المفضل لدى الأمريكيين بوجباته السريعة المتعددة الشهية. =

أنها تعبر عن المعتقدات والأفكار التي يتبعونها والأنشطة التي يمارسونها.

ومع اعتبار الأهمية التعددية الثقافية كأمر مفيد من أجل تعزيز السلام وسبل التفاهم بين الشعوب. يعتبر البعض أن الثقافة الواردة إلينا من الخارج (أو ما تسمى بالثقافة المستوردة) تمثل خطرًا كبيرًا منذ احتمال أن تحل محل الثقافة المحلية، مما يتسبب في حدوث انخفاض في معدلات التنوع، وهذا ما يعرف بالاختراق للخصوصية الثقافية، لقول الدكتور محمد عابد الجابري «أن العولمة تعني: نفي الآخر، وإحلال الاختراق الثقافي . . والهيمنة، وفرض نمط واحد للاستهلاك والسلوك». أي أن الغرب: يريد فرض نموذجه وثقافته وسلوكياته وقيمه وأنماطه واستهلاكه على الآخرين، تتجلى في رموز شتى أبرزها سيادة اللغة الإنجليزية كلغة التقدم والاتجاه نحو العالمية، وسيطرة سينما هوليوود وثقافتها الضحلة وإمكاناتها الضخمة، ومشروب الكوكاكولا وشطائر البرجر والكنتاكي حتى بدت لبعض الباحثين على أنها بمثابة غزو ثقافي اجتماعي اقتصادي سياسي يستهدف الدين والقيم والفضائل والهوية، كل ذلك باسم العولمة وحقوق الإنسان.

أغلب التعريفات التي قدمت استقرت على أن العولمة هي ظاهرة تتداخل فيها أمور السياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع والسلوك، وتحدث تحولات تؤثر على حياة الإنسان في كوكب الأرض أينما كان، وتبرز بفعل هذه التحولات قضايا لها صفة العالمية مثل قضايا البيئة، وتشابك أدوار المنظمات الأهلية المحلية والمنظمات الأهلية متعددة الجنسيات، فضلًا عن دور منظمة الأمم المتحدة والمنظمات المتخصصة المنبثقة عنها. ويقول أحد المتخصصين: «إذا أردنا أن نقترب من صياغة تعريف شامل للعولمة، فلا بد من أن نضع في الاعتبار ثلاث عمليات تكشف عن جوهرها:

= أما الآن، فقد أصبح هذا المطعم مطعمًا عالميًا؛ حيث أضحى له 31،000 فرع حول العالم وفي هذا الصدد يقول الصحافي توماس فريدمان في كتابه: «السيارة ليكساس وشجرة الزيتون»: «إن حربًا لا يمكن أن تنشب بين بلدين افتتحت فيهما مطاعم ماكدونالدز»، وذلك إشارة منه إلى انضوائهما في العولمة الاقتصادية والثقافية.

- ✓ العملية الأولى، تتعلق بانتشار المعلومات بحيث تصبح مشاعة لدى الناس جميعًا.
- ✓ العملية الثانية، تتعلق بتذويب الحدود بين الدول.
- ✓ العملية الثالثة، هي زيادة معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات والمؤسسات».

2 ـ الهوية:

الهوية بالنسبة للفرد هي الذات الخاصة تتحدد على أنها مصدر معنى وتعبير، فالمعنى المخصوص للذات هو حجر الزاوية في مفهوم الهوية الذاتية عند الفرد بوصفها بناءً اجتماعيًا ديناميكيًا لوعي الفرد بذاته عبر العلاقات مع ذاتيات أخرى، وهنا الآخرين أشخاصًا معينين ذوي دلالة واعتبار، أما على صعيد الجماعة تعني الهوية مدى قدرة جماعة على أن تتعرف إلى ذاتها ويتعرف إليها الآخرون، هي تتضمن معنى الديمومة والتماسك داخل الرموز الاجتماعية والهوية المخصوصة سواء للذات الفردية أو الجماعية هي سلوكات شبيهة بالمسرحة الاجتماعية تجسدها أنماط التواصل والثقافة والسلوكات والكلام والمظهر الجسدي الدال. وهذا ما يعنيه السوسيولوجي (أنتوني غدنز) في اعتباره الهوية نوعين: الهوية الاجتماعية والهوية الشخصية، ويمكن التميز بين هذين النوعين عن طريق التحليل إذ يمكن النظر إليهما من خلال علامات تدل على ماهية الشخص لناحية الجنوسة والجنسية أو المنطلقات الدينية (ومن الأمثلة على الهوية الاجتماعية: الطالب / الأم / المحامي/ الآسيوي/ الكاثوليكي/ المتزوج..) ومؤشرات تحدد موضع أفراد آخرين يشاركونه الخصائص نفسها..وعلى هذا الأساس فإن الهويات الاجتماعية تتضمن أبعادًا جماعية تعطي مؤشرات على أن الأفراد «متشابهون» مثلهم مثل غيرهم .. والهويات المشتركة هي التي ترتكز على منظومة من الأهداف والقيم والتجارب...

أ ـ أزمة الهوية:

في مهرجان سينمائي أوروبي أثار فيلم فلسطيني (وهو فيلم يتناول

تحضيرات المقاومين الملتزمين لعملية استشهادية ضد اليهود) بعنوان «الجنة الآن» (2006) حفيظة المنظمين والمشاركين خاصةً اليهود، وحاولوا إبعاده عن مشاركات المهرجان، لكن منتجو الفيلم أصروا على وجوده حرصًا منهم على إبراز هويتهم وخصوصيتهم في ثقافة المقاومة والاستشهاد. وفي السياق ذاته انزعج مسؤول فرنسي رفيع من تحول نمط حياة الجيل الفرنسي نحو أنساق ثقافية مغايرة وخاصة منها الأميركية، ليتوقف إزاءها قائلًا: «**لم يعد من الجائز أن يربى أولادنا على أفلام تنتجها هوليوود**» وكأن في ذلك دعوة إلى ضرورة المحافظة على الحياة الفرنسية في التنشئة و التربية.

في هذه المشاهد ثمة حرص من قبل بعض الجماعات / المجتمعات على التمسك أو العودة إلى خصوصياتها الثقافية باعتبار أن هذه الخصوصية تمثل تصورات قيمة تعبر عن حياة الجماعة، تستمد حيويتها من حضورها اليومي بممارسة العادات والتقاليد وشعائر الدين وسائر القيم المتفق عليها. في الخصوصية يكمن سر التكامل الاجتماعي عندما تحاول كل جماعة أن تنمي ثقافتها الخاصة بها بإقامة طقوسها الاحتفالية بحميمية ملحوظة، وأي تخل عن هذه الممارسة يُعتبر اندثار لما يميز هذه الجماعة كجماعة مستمرة بالزمن والمكان وإلا أصبحت بلا هوية أصيلة. إن هذا الترابط بين ما هو محلي (خصوصي) وما هو عالمي (عولمي) هو ظاهرة قديمة ـ جديدة في تاريخ الدول والشعوب، لكن ازداد هذا الترابط كثافة وسرعة واطرادًا خلال العقود الأخيرة بفعل مجالات الاتصال وتقنية المعلومات وتيسر المواصلات التي انعكست على حركة السلع والناس والمعارف في أن يتواصلوا بشكل فوري وفعال، إلا أنه ترك تداعيات على هويات الشعوب الثقافية وأصبح الحديث عن الخصوصية إزاء العولمية، والمحلي إزاء العالمي، والخاص أمام الشمولي، بمثابة المآزم تتجلى مظاهرها في أنها:

1 ـ عززت النزعة الفردية بشكل ملحوظ وجعلت الفرد ينقطع ويستغني عن جماعته، فانتشار الوسائل الاتصالية وما تركته من آثار معرفية أخذت تتيح للناس الإسهام بدور أكبر في تكوين أنفسهم وبناء هويتهم الخاصة فانحسرت معها وطأة التقاليد والقيم الراسخة و تزايد التفاعل مع

جماعات خارجية وتناقص وزن الرموز الاجتماعية التي كانت تحدد الملامح الرئيسة لخيارات الناس وأنشطتهم.

2 ـ غيرت من أنماط العمل حتى جعلته بكل تفاصيله رقميًا أمام أعيننا على جهاز الكومبيوتر وعلى شبكة الإنترنت التي أصبحت بمثابة مكتبة ضخمة، متجر واسع، أرشيف هائل، ملعب فسيح، منظم حسابات، مبرمج معلومات، مما يعني اختصار لعدد العمال والوقت والجهد.

3 ـ قولبت الناس في أفكار ونمط حياة متقارب عن طريق تحقيق التجانس وتوحيد القياس بين الناس، بحسب ما قاله الصحافي الأمريكي (توماس فريدمان) في كتابه عن العولمة «بين السيارة ليكساس وشجرة الزيتون» عبر إيجاد نموذج كوني موحد للقارئ والمستمع والمشاهد.

4 ـ أوجد تفكيرًا جديدًا على حساب الثقافة المحلية السائدة حتى اختلفت طبائع الأجيال وأخذت تطرح معها تحديات مرتقبة، كما حدث في تايلندا (2002) عندما قام فريق من الباحثين وبناءً على طلب من وزارة التعليم وضع برامج تعليمية عن الجنس لتدريسها في المدارس بعدما كان الخوض في هذا الموضوع محرمًا، حيث يفيد مستشار في معهد الأبحاث الصحية التابع لإحدى الجامعات في بانكوك أن الانفتاح على العولمة ووسائل الاتصال الحديثة لها أثر على شبابنا لما يتعلق منها بالجنس لهذا يمكن تعليمه شيئًا منها تجنبًا لمشاكل اجتماعية ونفسية. (رويترز 18/ 10/ 2002).

عن هذه الظاهرة يستخدم علماء الاجتماع تعبير العولمة باعتباره تلك العمليات التي تضفي الزخم والكثافة على العلاقات الاجتماعية المتداخلة والاقتصادية المتبادلة والمعرفية المتنقلة، حتى غدت بالغة الاتساع وعظيمة الأثر في تداعياتها ليس فقط على مسار السياسات العامة وإنما في حياتنا اليومية المباشرة، وتزايد التركيز على الهوية مع تصاعد سيرورة العولمة التي يرى فيها أصحاب فكرة الهوية الضيقة، خطرًا ماحقًا على الثقافات الأخرى «غير الغربية». ويطابق البعض بين العولمة والإمبريالية أو القطب الغربي

الواحد، ويرون فيها مخططًا أو حتى مؤامرة للهيمنة على الثقافات الأخرى: بوعي وقصد، فالعولمة حين تسقط الحواجز والحدود ويتحول العالم إلى قرية تهدد بالفعل ثقافات أخرى ولكن ليس بقصد المؤامرة والمخطط بل بحتمية تطور التداخل: ثقافيًا واقتصاديًا.

وقد يقف دعاة الهوية عمومًا أمام خيارين (أقرب إلى المستحيل) وقف العولمة أو تعميق الخصائص والميزات والصفات التي تحصّنها من أي تأثير خارجي. يرى البعض صعوبة تحديد وتعيين الهوية أو الخصوصية على صعيد الواقع وبالتالي اعتبر الكثيرون أن مفهوم الهوية مصطلح أيديولوجي أكثر منه علمي. وذلك لأن الهوية يمكن التعبير عنها أو تجسيدها من خلال الدين أو اللغة أو الدولة الوطنية أو القومية. وكل هذه خصائص متغيرة حسب طريقة استخدامها وتوظيفها، لذلك يمكن لمجتمع واحد أن يبدل «هويته» حسب المراحل المختلفة تاريخيًا ووفقًا للظروف الحاكمة. وهذا ما يجعل الهوية تتداخل مع مصطلحات عديدة مثل الخصوصية الثقافية، الاستثناء الثقافي، إزاء وجود هوية مختلفة مما يتطلب سلوكًا وردود فعل مختلفة أو حتى مقاومة لما يمكن أن يعتبر تهديدًا للهوية بسبب «غزو ثقافي» مثلًا وعندها نصبح في أزمة هوية.

3 ـ ما بعد الحداثة:

منذ الخطوات الأولى لنشوء ما يعرف بـ«عصر المعلومات» أو الحقبة الإلكترونية أو القرية العالمية أو ما بعد المجتمع الصناعي، والتساؤل مشروع حول ما يحدثه هذا العصر من آثار في فئات المجتمع كافة من أفراد أو جماعات أو مؤسسات، ليجتهد الباحثون نحو إيجاد مجموعة من الآراء حول التأثير الاجتماعي والنفسي والمعرفي لتداعيات هذا الحقبة، وكشف أولويات هذا التأثير الناتج عن العلاقة بين وسائل الاتصال والأوساط الواسعة من شرائح المجتمع، والتنبؤ بالتحولات الممكنة عند الناس على صعيد السياسة والعادات والطباع والأفكار والانفعالات في الحياة اليومية، وليس هنالك شك من أن ما يُرمز إليه بالتغييرات يمكن تبيّنها من صيغتين: صيغة أولى تسمح بدراسة قدرات وسائل الإعلام على مسار الحياة اليومية باعتبارها جزءًا مهمًا

في عملية الاتصال نظرًا لقدرتها على التحكم بالشروط الخاصة لظاهرة الاستقبال والإرسال، وصيغة أخرى توقفت عند نوعية الأثر بعد مرحلة الاتصال والاستقبال بدراسة أمور مثل: أمزجة الجمهور، آلية التقبل، الآراء والتصورات والأذواق وما إلى ذلك من تبدلات في السلوك.

وعن نمط العلاقة المعقدة بين الاتصال كوسيلة والشخصية الاجتماعية. يتحدث (ألفن توفلر) في كتابه «الموجة الثالثة» عن ثورة ما تحدث من جراء هذه العلاقة، فبرأيه الإعلام والمجتمع الذي ينشأ فيه صنوان، فلا يمكن أن يتغير الإعلام بوسائله ونتوقع بأننا كأشخاص وكهيئات لن نتغير.. فهل انتهى عصر «ما بعد الحداثة» وحل عصر «الثقافة الإلكترونية». وهو عصر له ملامحه ومبادئه وأخلاقياته.؟ على الرغم من أن كل هذا لا يزال في طور التشكل والتحول، فإن كثيرين يرون أننا ندخل أكثر العصور ديمقراطية في التاريخ. ما سمات العصر الجديد الذي نعيشه؟ وبماذا يختلف عن عصري «الحداثة» و«ما بعد الحداثة»؟ خلال أكثر من 400 سنة، تطورت الثقافة الغربية من «كلاسيكية» (تقليدية) إلى «رومانتيكية» (خيالية) إلى واقعية إلى حداثة إلى ما بعد الحداثة إلى الحقبة الإلكترونية كما أسماها (ألفن توفلر) أحد خبراء المستقبليات، وتتميز هذه الحقبة بشيوع الثقافة الإلكترونية التي ترى نفسها ثقافة من نوع جديد. و تميل نحو الليبرالية أو الليبرالية الجديدة. وتراها فلسفة يمكن أن تطبق على السياسة والاقتصاد والمجتمع. ولا تُذكر الثقافة الإلكترونية إلا وتذكر معها ثقافة الإنترنت الذي جعل العالم قرية واحدة صغيرة، وجعل نفسه حلقة الاتصال. وتقول آخر الأرقام إن 500 مليون شخص يشتركون في الموقع الاجتماعي «فيس بوك» يكتبون بأكثر من مائة لغة. ولم تعد اهتمامات الجيل الجديد شرائط الفيديو الغنائية، بقدر ما أخذ يهتم بالأخبار والتحليلات التي تعنيه ويشترك في الحملات الوطنية مثل تشجيعه على التصويت في الانتخابات. ومؤخرًا، ظهرت علامات ثقافية أخرى لهذ الجيل الإلكتروني: موقع «youtube» لشرائط الفيديو، وموقع «facebook» للاتصالات الاجتماعية. وصارت ماكينة البحث «google» ودائرة المعارف الإلكترونية «ويكيبيديا» عماد هذه الثقافة الجديدة.

يعكس عصر ما بعد الحداثة، أن «الثقافة الإلكترونية ستكون أكثر ديمقراطية من أي ثقافة سبقتها. حيث في مطلع القرن التاسع عشر استطاعت أفكار الثورة الفرنسية أن تكسب أنصارًا لها في إسطنبول وشنغهاي وبوينس إيريس، وقد انتقلت إلى هذه العواصم بفضل عربات الخيل والسفن قبل ثورة البخار وفي مطلع القرن العشرين تمكنت الأفكار الاشتراكية من أن تغزو العالم بواسطة القطارات التي كانت تستغرق أيامًا لكي تصل. أما اليوم لم يعد لزامًا أن تنتظر أيامًا كي تصل أفكارك إلى حيث تريد .. فإمكانات الاتصال البصري والسمعي لم يعد يعوقه أي حاجز جغرافي أو سياسي أو حتى ثقافي.. تيسَّر انتقال الأفكار بشكل غير مسبوق في تاريخ تواصل المعلومات، فالصحف مثلًا أصبحت تصدر في طبعات مختلفة وتوزع في اليوم نفسه في أكثر من منطقة، والكتب تترجم إلى عشرات اللغات وأصبح بمقدورها أن تدخل أي عالم. بفضل ماذا؟ بالطبع بفعل التقدم الهائل لتكنولوجيا الاتصال، الذي ألغى المسافات واختصر الزمن معًا، وأوجد مناخًا اجتماعيًا مفتوحًا عندما أزال موانع الالتقاء والتفاعل بين الشعوب والثقافات. لم يعد هناك عزلة حتى عند أبناء الجماعات الأثنية أو العرقية أو الدينية المنتشرة في أصقاع المعمورة. فالمهاجر التركي إلى ألمانيا يمكنه أن يعيش في وطنه واقعيًا بافتراض آلي ليس عبر القناة الفضائية الخاصة بموطنه التي تبث له الأغاني والأخبار التركية ولكن بالاتصال التفاعلي عبر الإنترنت الذي أخذ يُتيح له قراءة الصحف الصادرة في إسطنبول أو أنقرة صباح كل يوم قبل أن يذهب إلى عمله في برلين أو فرانكفورت، وأكثر من ذلك يسَّر له أن يقيم مع ذويه حين يعود مساءً سهرة حميمية «يدردش وإياهم ويراهم ويرونه» كأنهم جميعًا على شرفة منزله في بيته المحلي.

وبالمثل يمكن للبناني المقيم في باريس أو مونتريال أن يطمئن عن أخبار الأهل يومًا بيوم حتى ولو لم يكن موجودًا عبر أكثر من وسيلة (المجيب الآلي/ الهاتف الخليوي/ البريد الإلكتروني) لم نعد ـ وكما عبر أحدهم ـ «نشعر بالانفصال عن تفاصيل الحياة اليومية بالبلد الذي نترك، كنا في السابق ننقطع فعليًا عن أقاربنا وأصحابنا وأعمالنا في حين أننا اليوم قد نغيب ونعود قبل أن

يلاحظ أحد غيابنا» فالغربة لم تعد غربة أو هجرة لأن المسافات لم تعد بعيدة بفعل وسائل التواصل المتاحة، إذ أي واحد منا لا يتابع أخبار بلده وحسب وإنما أخبار حيه ومنزله. مما يعني أن ثمة أثنيات أقامت أوطانها على شبكة الإنترنت بحيث أصبح بمقدورها أن تتواصل فيما بينها مهما تباعدت مهاجرها.

لقد أعطت التطورات الجديدة في مجال تقنية المعلومات والاتصالات زخمًا جديدًا لمسيرة التفاعل بين الناس ووسعت مجالاته وعجلت به في مختلف أرجاء العالم. يمكن أن نأخذ مثالًا على ذلك الأحداث السياسية العالمية أو المناسبات الدولية الهامة كمباريات كرة القدم التي يشاهدها ملايين من البشر ويتفاعلون معها في آنٍ واحد[1].

وفي السياق ذاته قرر بعض علماء الاجتماع الأمريكيين دراسة أثر تكنولوجيا الاتصال على الحياة الاجتماعية عند بعض العائلات الأمريكية (في مقاطعة كاليفورنيا خلال العام 1991 ليتبين طغيان وسائل الاتصال والإعلام بشكل مباشر على حياتهم اليومية بدءًا من البريد الإلكتروني ((E-mail)) ويب بيج (WebPages) الهاتف الخليوي، المجيب الآلي، المفكرة الإلكترونية (Digital organizers) المستقبل الآلي (Pagers) حيث أصبحت هذه الوسائل بجملتها في متناول العائلة/ الفرد الواحد وتسمح لمستخدمها أن يبقى على تواصل أينما وجد مع أفراد عائلته. واستنتجوا أن هناك ما يسمى (MULTITASKING) عندما رأوا بأن:

Families are socialized into multitasking as the social norm

أي أخذ يتضاءل الاهتمام بأداء عمل واحد في وقت محدد شيئًا فشيئًا وبات بالإمكان القيام بأكثر من مهمة في نفس الوقت ولو كنت تقود سيارتك فأنت محوط بأكثر من وسيلة اتصال.

(1) عندما ربحت إيطاليا كأس العالم لعام 2006 تحرك مناصرو هذا الفريق في شوارع بيروت بمسيرات فرح وابتهاج حتى ساعة متأخرة من الليل وكأن بيروت إحدى أحياء إيطاليا . . مما دفع بالسفارة الإيطالية في بيروت إلى أن تصدر بيانًا تعرب فيه عن «امتنانها الشديد للشعب اللبناني الذي برهن عن دعمه الحار والودي للفريق الإيطالي طوال فترة البطولة» (عن صحيفة النهار اللبنانية 11/ 7/ 2006).

4 ـ المستقبليات.

في كتاب له بعنوان «عالم جدي شجاع» يعرض (ألدوس هكسلي) بعض التنبؤات المتشائمة عن تطورات المستقبل حيث يصور فيه عالمًا تسوده تمييزات اجتماعية صارمة بناء على فوارق بيولوجية من صنع الهندسة الوراثية، وفي السياق ذاته يطرح (جاك إيلول) نظرة سوداوية في كتابه «المجتمع التكنولوجي» إلى أن التكنولوجيا ستكون قوة ماحقة تقمع الشخصية الإنسانية تحت ضغوط بيروقراطية مركزية كما عبر في قوله: «سيكون الإنسان عبدًا طيّعًا للآلة شأن سروال تحت مكواة»، وكأن في ذلك إنكار للنفوذ البشري أمام الهيمنة التكنولوجية حيث ستخضع الإنسان لمآلها ولنظامها الآلوي سواء كانت شبكة قوى أو نظام دفاع أو صناعة، وهذا ما يعرف بالاستجابة للحتمية التكنولوجية التي تتنامى بشكل مذهل قد لا يحسن الإنسان مواكبتها. لقد أحدثت ثورة المعلومات صراعًا جديدًا في العالم اليوم، حيث لم يعد الصراع القائم بين الدول للحصول على مادة ثمينة أو الاستيلاء على نفوذ في منطقة، بل الصراع بين الذي يعرف والذي لا يعرف، صار القوي من يعرف أكثر في عالمه، أو من يملك براءات اختراع أكثر من سواه بين الدول. لأن المعلومات ليست مجرد معرفة، بل مجموعة من المعطيات الأرشيفية إلى أن نقرر نحن: ماذا سنفعل بها. إن الشبكة الجديدة، تكنولوجيا المعلومات الغريبة، التي تضيق على العالم كما تضيق أصابع اليد عنق الزجاجة، أصبح الإنسان معها مواطنًا شموليًا ـ عولميًا وليس محليًا، غدت هي عصب الحياة المعاصرة والقادمة، حتى أصبحت حياتنا أكثر تقبلًا من ذي قبل إزاء التقنية التي غدت جزءًا من حياتنا..

ولعل الحدث الأكبر ما يعرف اليوم ب: BIOTECHONOLOGY، حيث اكتشاف الهندسة الوراثية (الحدث العلمي الهام الذي اكتشف العام 1997 وتضاهي أهميته بأهمية صعود الإنسان إلى سطح القمر)، وعمليات الاستنساخ وتحديد مواصفات الجنين التي تزيد من مآل التكنولوجيا الطبية..بعض علماء الاجتماع أشاروا إلى سمات هذه الثورة التقنية على الواقع الاجتماعي لجهة ما يسمى بظاهرة medicalization حيث التلاعب

بالجينات البشرية لغاية طبية أو علاجية أو شكلية، ما أحدث ذلك صراعًا قيميًا بين متقبل وبين رافض، وطرح المسائل الأخلاقية والسياسية والدينية على بساط الواقع الإنساني والاجتماعي.. هل تعديل الجينات الوراثية هو لغاية علمية طبية بحتة؟ هل يمكن إساءة استخدام هذا التعديل لمآرب أخرى؟ هل يمكن لمثل هذه الحدث الطبي أن لا يترك أية آثار جانبية على صحة الإنسان والبيئة والمجتمع لاحقًا؟ خاصة وإن مثل هذا التعديل طال عالم الحيوان والنباتات فبات هناك ثمار وخضار مهجنة يستهلكها الإنسان يوميًا. هل سيصل بنا الأمر لأن نستنسخ أعضاء بشرية شبيهة من الحيوان والنبات لنزرعها في جسم الإنسان تمامًا كالعضو المصاب وتؤدي دوره؟ يبدو أن الاحتمالات على عالم الطب والمجتمع والصحة مفتوحة على تخمينات كبيرة، ولا زالت التكنولوجيا في طور تقديم الإجابة خاصة وأن الحدث الأبرز الذي يطرح في عالم الطب اليوم هو العلاج الجيني، حيث تجري اختبارات معملية على مجموعة من الفئران لمعرفة إذا كان بالإمكان تعديل الجينات المتعلقة بالسلوك الإنسان السيئ نحو جينات أخرى تحمل مواصفات طيّبة تحد من مخاطر الإجرام والعنف والإدمان[1]، كما تقصى العلماء طبيعة الهرمونات الذكرية والأنثوية فوجدوا أن زيادة هرمون التستوستيرون عند الذكور يكون أحيانًا عاملًا يؤدي إلى العدوان.

التطور التكنولوجي المستقبلي ليس مجرد آلة أو اختراع بل إنه وسيلة معرفية وحركة اقتصادية بامتياز تساعد الإنسان على معرفة البيئة التي يعيش وفق أسهل السبل. كما إنها وسيلة غائية لتحقيق الإنسان حوائجه ورغباته.. لقد تقلص زمن الاختراعات وأصبح بالإمكان يوميًا أن نشهد جديدًا.. لقد تحول الإنسان إلى مواطن عالمي بفضل الإنترنت فبات يشارك في انتخابات ويسجل في جامعة ويشتري مواد استهلاكية من أمريكا إذا كان من مواطني البلاد العربية أو الصين أو في أقاصي البلاد الإسكندنافية. فضلًا عن متابعة آخر الأحداث

(1) بعض نظريات علم النفس تعيد ظروف السلوك العدواني وأعمال العنف إلى أسباب بيولوجية (عطب ما لحق في وظائف الفصوص الأمامية أو الصدغية من الدماغ التي تتحكم بالانفعالات الفجة كانفعال الغضب الهيجاني).

العالمية في لحظة حصولها والدخول في عالم البورصة وشراء الأسهم عبر جهاز صغير يحمله أحدنا بين كفيه، وعليه لا يمكن التنبؤ بالآفاق التي سيرتادها الجيل الرابع والأجيال اللاحقة من الهواتف النقالة ووجوه تقنيّة عديدة مماثلة.. وهذا ما يجعلنا نشير إلى ما هو متداول اليوم في العلوم الاجتماعية من مفاهيم ومواضيع بالمستقبليات.

* علم المستقبليات أو الدراسات المستقبلية هو علم يختص بـ «المحتمل» و«الممكن» و«المفضل» من المستقبل، بجانب الأشياء ذات الاحتماليات القليلة لكن ذات التأثيرات الكبيرة التي يمكن أن تصاحب حدوثها. حتى مع الأحداث المتوقعة ذات الاحتماليات العالية مثل تضخم الإنترنت أو زيادة نسبة شريحة المعمرين ببلاد معينة، لذلك فإن المفتاح الأساسي لاستشراف المستقبل هو تحديد وتقليص عنصر «لا يقين» لأنه يمثل مخاطرة علمية. يمكن اعتبار الدراسات المستقبلية أسلوبًا لدراسة ظاهرة طبيعية أو اجتماعية لجهة تطوير نظرياتها في الوصف والتفسير والتنبؤ بمسارها في المستقبل، عبر ما يعرف بـ «السيناريو المستقبلي»، ولا يأتي هذا السيناريو من لا شيء، بل يعتمد بشكل رئيس على منظومة كبيرة من البيانات المبرمجة والمخزنة والتي يتم تحديثها باستمرار وفقًا للتغيرات في جميع الميادين بناءً على أنه:

- وصف لوضع مستقبلي وسبل إدارته.
- وصف لمستقبل محتمل، أكثر من كونه توقعات محتملة لمستقبل فعلي.
- وضع سلسلة من الافتراضات لأحداث مقبلة.
- رسم صورة متناسقة لمستقبل محتمل.

يعرف علم المستقبل بأنه نظام عمل مبرمج للاستجابة على الأحداث والتطورات الرئيسة داخل إطار من التخطيط المستقبلي للدولة أو لمؤسسة، وذلك بهدف تحقيق النجاح في المدى المنظور عبر سيناريوهات علمية تعمل على وصف وضع مستقبلي ممكن أو مرغوب فيه، وتوضيح خصائص المسار أو المسارات التي تؤدي إليه، بدءًا من الوضع الراهن أو من وضع ابتدائي

مفترض عبر إجراءات نشطة للتعامل مع الأحداث الخارجية أو الداخلية، وتسخير الإمكانات لتحديد الأسلوب وبتوظيف الأشخاص والمنظمات التي سوف تعالج مراحل الأزمة. هذا السيناريو لا بد منه للحفاظ على استمرارية وسلامة الدولة والمؤسسات وعدم تعرضهم لصدمات قوية.

تأتي خصوصية الدراسات المستقبلية وأهميتها في موقفها من الزمن (لا من وجهة نظر فلسفية ولكن من وجهة نظر منهجية) فعادة ما يعد الزمن متغيرًا مستقلًا ويؤخذ كمعطى، ولكن الدراسات المستقبلية تأخذ الزمن بصورة جدية، كإشكالية لا كمعطى، وتنظر إليه على أنه متغير تابع للخبرة الإنسانية والحضارية. من هنا تأتي أهمية التفريق بين الدراسات المستقبلية ووظيفة التنبؤ في العلوم الاجتماعية.